

للحُزَنِ مَمْشَى

قصص قصيرة جداً

تأليف :

منيب مختار إسحق



دار المنى للطباعة و النشر و التوزيع

دار المنى للطباعة و النشر و التوزيع	حقوق الطباعة و النشر و التوزيع
المنصورة - كلية الدراسات الإسلامية القاهرة - حلمية الزيتون Dar.elmona@gmail.com - 00201155956285 - 00201006101006 00201142129140	العنوان
منى عبد اللطيف أحمد مصطفى	رئيس مجلس الإدارة مدير الدار
أحمد حسن	تصميم الغلاف
للحزن ممشى	اسم الكتاب
منيب مختار اسحق	اسم المؤلف
مجموعة قصصية	نوع الكتاب
منيب مختار اسحق	الملكية الفكرية محفوظة للمؤلف
20629/2020	رقم الإيداع المحلي
978-977-6853 - 06 - 5	الترقيم الدولي

إهداء

إهداء أول :

إلى روح الفنان الرائع , شول منوت

إهداء ثاني :

إلى شيطان الإنس , عدو البشرية الأزلي الذي أنضج فكرة صنع
البندقية في مخيلته

وإلى صديقي الرائع سليمان صالح , طبعاً

منيب مختار

للحزن ممشى

كمن يسابق الرياح العاتية الهاربة من أقاصي الكوكب حيث تبدأ الأرض دورانها من هناك, سحابات متكتلة تطاردها محافظة على تلك المسافة التي تخيفها دائماً, تأتي لتحتمي بفارسها الهلامي العبثي والوهمي أكثر, تأتي وفي خلجاتها أصناف الأمانى اليافعة التي تعتبرها كطوق نجاة من المجهول .

ساعة يد تخص شخصاً ما يجلس عن قرب على مقعد خشبي محاذياً للرصيف تشير إلى الثامنة صباحاً, بعد لمحة خاطفة للطريق الطويل الذي لا يلفظ سوى السيارات الخاصة (الملاكي), أعود ببصري نحو جريدة بآتة أنظر إليها غير مبالياً بمحتواها ولا حتى بمن تلمع صورهم من صفحاتها المتعددة, الرصيف الممتد مكثظ بالمنتظرين والمتذمرين مكثظ بالموظفين الحديثين الذين لم يفلحوا بعد على إقتناء سيارات من فائض الإيصالات المالية والطلاب والعمال البسطاء وأصحاب المهن الحرفية وهناك في جزء قصي يجلس المتسولين أيضاً ليصطادوا الأخبار من بين الوفود , جميعهم في دوامة إنتظار مفتعلة يوبخهم أرباب أعمالهم فيما بعد جراء تأخيرهم الغير مجدي حسب منطق السلطويين الذين لا يعرفون الطواير . وطن بالكامل, بسكانه ومبانيه وغاباته يقيم انتظار باهت على الأرصفة المبتلة بدموع وعرق وأرق الليالي الفاجرة المنبوذة, ليس هناك مهرب من مصائر الأشياء في مدينه الرب, مع ما تبقى من روح نحرك السواكن التي طال ثباتها الأليم كمن راهن على رأس الأرض بآخر فرصة نجاة غير مؤكدة, كمن يرى بعمق نهايات الأشياء المغايرة للعقلانية بعين المنطق, عيسى يي يقصد قرينه النائبة جداً عن تلك المدن المزدحمة, الخالية تماماً من صف الانتظار الطويل, سحر عجيب يدركنا في لحظة

صمت مدوي لُيعيرنا بيت القصيد المعكوس ويسافر بنا إلى عوالم أدنى ما يقال عنها مزاجية، وما أخبث من أن تنجب حبيبتني بالمعني الشرقي للحب طفلاً جميلاً غير محظوظ في توقيت سيء للغاية، أن تضع بين كفيّ شخصاً كاملاً شاركت بقوة في وصوله إلى هنا، جعلتني أسترسل مخيلتي مضيئاً مصير آخر إضافة إلى مصيري المجهول، قالت بعد أن رمقتني بحب وكره في ذات الوقت:

كتلة الحزن هذه تخصك

أصبح الصبح، وديك بالجوار بدأ بالغناء حسب رأيّ والأذان وفق رأيّ شيخ النور حمد_ السماء تُعبر عن سعادتها بطريقتها والأرض أيضاً تفتعل اتزان جديد، تتململ وتعيد عكازها الطبيعي واقفاً بصلاية لتفلح في تحمل أثقال مجهولة تختمر في السطح، لم تمهلنا الظروف لنستيقظ على الأقل، حيوان مفترس أخذ يبتلعنا من السماء أخذ يشرب من دمائنا اللزجة ذات المرات المتعددة_ طائر ما أطلقنا عليه في بادئ الأمر شيطان وفيما بعد أيقن الجميع بأن الحيوان السماوي مخلوق يُدعى أبايل، تُرى من أيقظ هذه الأشباح النائمة وسلطها علينا يا دينق فليخبرني أحدكم ماذا فعلنا يا شيخ يُور، هل قررت الآلهة أمراً ما؟

وقف عيسى ييِّ وأخذ يصرخ_ لماذا يا إلهي فأنا مسيحي ملتزم وبيننا مسلمين ملتزمون أيضاً، قل لي ما ذنب طفلي الرضيع ماذا اقترفنا؟

هبط المساء المعتق بصُنان الدم، النسور تحلق عن قرب تستأذن أقرباء الموتى لتحفل بعشاء فخم أعده شخص خلف المرأة، أنصاف جثث تتأوه على أحضان ذويهم _ عبرات مخنوقة تصدر أصوات متقطعة هنا وهناك والنسوة في أقبح صورهن ينتحبن ويصرخن، دموع منهمة على تجاعيد كبار السن والشباب المقهورين، سولو الصغير طارد الطائر الشرير بعد أن شاهد سقوط والدته عملية مطاردة ليست متكافئة تماماً، ربما الصدمة وعمره الصغير كانا كفيلين لخوض مغامرة ذات نتيجة فاشلة منذ البداية _

ليس هناك من يخبره بأن الأمر يحتاج إلى جناحان وروح قذرة مستذئبة , يحتاجان إلى إمكانيات شبه مستحيلة يا صغيري مأساة تفوق قدرة الإنسان العادي على الأرجح ، دينق ممسكاً بغيلون ورثه من أسلافه الأولين متفحصاً علبة الحشيش المركونة في أقصى سرواله الكبير, تمخض بعنف قبل أن يسرق الدخان لرئتيه البائستين, ملتفتاً لعيسى يي المسكون بجن الأقباط كما هو شائع عند قبيلته, جن لُقب بالوطواط, مشق السياط الذي يُزين جسده يطفو على شكله الهلامي الجميل وهو مشغول باستئصال شوك الكتر والأم لسيك من على ظهر نعجتيه الصغيرتين تمهيداً للحظة تأمل كما قال لاحقاً, أو ربما مرتبطاً فعلياً بطقوس جنية كما يزعم البعض, سأله دينق بكلمات خرجت ضخمة جراء الدخان الذي لازم الأحرف الهاربة نحو الفراغ :

- ماذا بك ؟ هل جننت ؟

افتعل نصف استدارة مع نصف ابتسامة ثم أردف:

- ما الذي يبعثني إلى الجنون يا رفيق, فقط ثمة أمر ما بدأ شائكاً للغاية, سألت نفسي وأنا عائد إلى هنا عن ماهية الفوارق والمقاربات التي تتجلى في عالمنا, هل نحن فعلاً عبثيين حد التأقلم مع ترهاتنا المُستهلكة, هل هي لعنة مألوفة لدينا ؟

أخذ دينق يسبح في أغوار خطايا عسى أن يعي ما أدلفه عيسى لتوه, لكن الأمر صعب للغاية بالنسبة لقروي لا تستدعي الأشياء من حوله العقلانية المحضنة, حيث أنه لا يفكر كثيراً أو ربما لا يفكر البتة لطبيعة حياته العرضية في كل صورها, في الصباح الاعتيادي يتجه شيخ يُور نحو الغابات المتراصة المتقطعة ليحظي بغزال تائه أو دجاج الغاب (جداد خلا) يبحث عن فريسته التي خبأها له الآلهة في مكان ما خلف شجرة سدر أو أشجار مشابهة, ممسكاً بحربته المزينة بجلد النمر من المنتصف وسلاح بلدي آخر

أشبهه بالكلاشنكوف من حيث الرعب رغم بدائيته, هو صورة مصغرة للذين يطاردون الأشياء المتحركة أيّ كان نوعها حتى ظلالهم السوداء الداكنة, نادراً ما يعودون خالي الوفاض, ونادراً ما تصل عائدات القنيص إلى أسرهم, حيث بيوت الخندريس تقفز لأذهانهم مع كل لعبة مطاردة, ربما هي من أقوى الدوافع لبيذل يُور الملتزم جهد مضاعف ليلحق بأرنب بري وعلى الأرجح يملك تعريف آخر للالتزام يخصه وحده, في الوقت ذاته تملو أصوات الأطفال, صياحهم, أغانيهم, تخاريفهم الطفولية الجميلة ومزاحهم الحاد الهمجي الذي يصل حد الأذى أحياناً, يتفاخرون فيما بعد بضخامة أشياءهم وطول قاماتهم حيث أن مقاييس الرجولة العادية تنقلص عندهم إلى الطول والعضلات البارزة ونسبة خوض النسوة في الحديث عن شخص ما وإطلاق الشائعات وتداولها, حيث أن معظم الحياة هنا مبنية على القصص والأساطير والأكاذيب الحقيقية نوعاً ما فالحقيقية المحضة هنا الموت الحكومي فقط, سولو الصغير الذي يحلم بأن يرتدي الملابس العسكرية ليقتل ذاك الشبح السماوي الذي يطل عليهم من حين إلى آخر لينسف ويُغيب ويقتل, وما زال سولو يقتل كل الأشياء التي تستطيع التحليق في السماء حتى العصافير والفراشات, كان يحب الرسم على الورق فتأتي الرياح العاتية وتأخذ أوراقه إلى الفضاء لتحلق بعيداً وفق قوة وطريق الرياح وما أن تهبط يمزقها ويدفن بقاياها كي لا تصير شبحاً آخر, سولو يقتل كل فرصة لأشباح أخرى قد ينجبها الوقت يخاف من أن يترك صدفة تنسفه فيما بعد, فضل الرسم على الحائط الذي لا يطير ولا يحاول ذلك أيضاً, راودته وساوس عديدة منها أن الجن القبطي الذي تلبس عيسى هو من أحضر الشبح السماوي, الوطواط طائر كذلك يا إلهي طائر خرافي يجذب التحليق ليلاً, عشاق الليل خونة بلاشك حسب تعبيره, الظلام عدو الإنسان المسالم, عدو النساء الحوامل والأطفال المرضى والمسنين والمتسولين, الليل صديق العاهرات والداعرين واللصوص, صديق تجار الأضواء الصناعية والمتسللين والقتلة .

شيخ يُور العائد من رحلة صيد عبقة، حاملاً على كتفه قط بري ضخم، يتحتم على اصطياده خمس شبان من سكان العاصمة كما يعتقد، خمس رجال قد يزنون شيخ يُور، صرخ بصوت غليظ منادياً زوجته ماورا البدينة، ملامح الزهو تعلقو تجاعيده الكثيفة، تصفق زوجته بانتصار، أخرج من مخلاته دجاجة كنو دجاجة برجل مكسور، يمنع على السكان أكلها أو اصطيادها لأنها تصيب أكلها بالبرص هي لعنة مساقاة منذ الأزل، لعنة الأجداد القدامى الرحماء والشيخوخ، جميعهم يهابون ذاك النوع الملعون من الدجاج، هربت زوجته نحو الشارع فور رؤية الدجاجة وأخذت تتلصص بوجهها المكفهر تترقب ما يفعله يُور وهي ترتل بعض التعويذات، بدأ بتضميد الجرح بقطعة قماش اقتسمه من ثوبها الطريح، في الوقت الذي يشخر شيء ما في السماء، إنه الطائر الشيخ مرة أخرى، اللعنة التي جاءت مع شيخ يُور على هيئة دجاج بري، ماورا أخذت تصرخ والقرية انقلبت رأساً على عقب، الكل يُعبر عن خوفه بطريقته يعبر عن سخطه وسوء حظه، السماء تمطر براميل صغيرة هذا ما وصفه سولو فيما بعد، ربما هو فقط من تجرأ على النظر في الأفق البعيد هو فقط من كان يملك رغبة وحنون كافيان لرمق عزرائيل رسول القصور الذهبية، طائرة جزئها الأمامي أقرب إلى رأس السهم أما مؤخرتها أشبه بسمكة قرش عملاقة ربما خاصة الاتهام والافتراس قاسم مشترك بينهما، هذا ما وصفه سولو للهاربين الذين لا يعرفون حقيقة الشيطان السماوي، اللعنة الأبدية، الطائر الشبح المسلط من آلهة الشر .

دينق يرتعش، يرتعد، يدعو ويبتهل برب لم يتعرف عليه سوى الآن، لا يدري من أين له بهذا الإيمان المفاجئ واليقين الجازم بأن دعوته ستُقبل، لا يدري لكن لا مناص، كل ما يدركه هو الاستنجاد بقوه أكبر من قوة البشر، يدها ترتجفان، غيلونه يسقط وبقايا دخان متحجر يخرج من كل نوافذ جسده، من فمه وأذناه وربما إسته، ماورا متشبثة بشجرة تبليدي كبيرة، شجرة تعود لما قبل الميلاد وفق معلوماتها عسى أن تفلح في الاختباء من

ذاك المخلوق الذي فوق الجميع, تتمم بكلمات مبهمه أو ربما تعويذات, تلعن بين كل آيتين زوجها شيخ يُور, هو من جلب دجاج الغاب إلى القرية هو من يجب أن يُعاقب, الطائر الشبح لعنة دجاج الكنو, أخشى أن يصاب الجميع بالبرص لو تمكنوا من النجاة, إما الموت أو البرص, خياران أحلاهما مر, لمحت سولو فقط يطارد الطائر متجهاً يبصره إلى أعلى, سولو الصغير يرشق الأفق بالحجارة وفي مخيلته الصبية نسج لها سقوط مدوي, نسج مصيدة محكمة كتلك التي يستخدمها مع العصافير ,

ماورا تصرخ :

- يا ولد أرجع يا ود الحرام بقتلوك

صرخات مصحوبة ببكاء ونواح, دموع خفيفة تداعب خدودها الشاحبة, سولو يطارد الطائر يبذل جهداً مضاعف, يدنو ليلتقط المزيد من الحجارة, ماورا في محاولة بائسة للجري خلفه, تحاول ولكنها تكتشف بأنها لم تتقدم خطوة إلى الأمام, تجري في مكانها فقط, صوتها فقط من يجري خلف سولو حتى صوتها المبحوح بدأ يتلاشى, هي فقط من تسمعه الآن, رصاص مبعثر نزل على الأرض رصاص من السماء يهطل نحو الصغير, لأول مرة تتجرأ ماورا على النظر للطائر الشبح, تنظر ولا ترى سوى الضباب ورائحة البارود المقزز, شبح الطائر فقط ما تراه, اتجهت يبصرها نحو الأرض لتجد سولو ممدداً, تحول جسده إلى بقعه حمراء, حاولت مراراً أن تصرخ لكن عبثاً كانت تحاول, عبثاً تدخل أصابعها في حنجرتها لتعيد صوتها, مات سولو بل قُتل, غادر الشبح بعد أن تأكد من موت الجميع, بعد عملية تكرار رمى الرصاص على الجثث والقنابل على المنازل, عيسى يي هرول نحو جثة سولو الصغير أخذه بين أحضانه كقطعة لحم لزجة, مات وفي داخله امة بأسرها تبحث عن قيامتها, مات دون أن يعلم من هم القتلة دون أن يعي لماذا؟, رحل كخطيئة هاربة من قلب نبي لم يُنصبه الله قط, رحل كرجل

سكن جسد طفل، ماورا تنوح وتسكب التراب على رأسها وتضيف بين كل ذلك:

- أولاد الحرام كتلو، كتلو، كتلو

دينق من زاوية مشاهدة باهتة ينظر إلى الجميع، ينظر إلى قطعة اللحم الصغيرة التي يحتضنها عيسى يي، فقط ينظر ولا يُصدق هل حقاً قُتل؟ هل حقاً خسر صراعه مع الطائر الشبح، هو فقط من كان يرجح كفة انتصار سولو كان يؤمن بفكرته يؤمن بقدراته كطفل مختلف واستثنائي، في الوقت نفسه تمنى لو أن السماء أخذته بدلاً عنه لو أنه وهب ما تبقى من عمره ليحيا الصغير، جلس على ركبتيه، قاسمهما ذاك العناق الحزين، عناق الفقد، صمت مؤلم عم المكان ليس سوى طقطقة القصب الذي يحترق وعواء الكلاب الخائفة ليس سوى أنفاسهم المتقطعة وعبراتهم المخنوقة، شيخ يُور لعن كل شيء حتى رحلة الصيد البائسة تلك، حتى دجاج الكنو الجريح أضحت الحياة مجرة أكلوبة حذقه أو ثعبان ضخّم لم تستطيع عصى موسى ابتلاعه هو هكذا يكره تلك الفرص التي تسنح للآخرين قتل الآخرين، يكره الفرص الغير متساوية يكره ما يتنافى مع إعتداله الديني، أخذ يمشق الأرض بحربة الصيد المسمومة ناسجاً في مخيلته حرباً بدأه سولو حرب خسر فيها الذي كان على الآلهة أن تبارك انتصاره حسب تعبيره، ثمة خطوات ثقيلة تأتي من خلفه، وقع متذبذب يتقدم نحوه، خبأ دموعه بسرعة فائقة خلف وقارة مصطنعاً ابتسامة صفراء في وجه دينق، أخذ دينق القادم لتوه ينظر لشيخ يُور تارة وتارة نحو الفراغ والرماد والجثث المنتفخة وهو يحشر كومة حشيش كبيرة في غيلونه الأثري، يحشره بقوة كما لو أنه يفعل ذلك حقاً في فم قائد الطائرة، كمن مُنح دقيقتان فقط قبل إعدامه ليحظى بلحظة نشوة غير مكتملة، قال بعد أن سحب نفساً طويلاً من الألم:

- ماذا بعد يا شيخ ؟

هل نحن الضحايا القادمين في مسلسل الموت, هل حقاً سنكون مقطع
مأساوي في الحلقة الأخيرة ؟

يُور بنبرة حادة :

- سيموت البطل هذه المرة

ثم غادر موغلاً في الغابة, تاركاً صديقه المذهول, هو فقط قال لكن كيف لا
أدري, هو أيضاً لا يدري, أخذ يصارح نفسه _ نحن لا نستطيع محاربة
الأشباح لا نستطيع الطيران مثلها, كان على أحدهم أن يُخبر سولو بذلك ,

خيم الليل, اعتلى القمر برزخ الأفق, بدأ شاحباً هذه المرة أو ربما شائخاً,
تبدو عليه خطوط حمراء متعرجة تشبه لون الدم المخثر, ماورا جالسة
تحت شجرة مانجو عاقرة, تحاول أن تصنع عشاء أسفل فضاء العزاء تحاول
أن تتذوق طعامها المخلوط مع روائح الموت, ملاح قرع يتأبط مقودها
الطيني يكابد لهيب الحطب الذي يُصر على النضوج المفرط أو ربما هي من
تُصر, تلاطف عيسى يي بين الفنية والأخرى مباحة :

- رأيك شنو في حلة القرع يا مسكون ؟

عيسى بتهكم وكأنها أيقظت الجن القبطي المزعوم بداخله:

- قرع شنو وبطيخ شنو ياخ, الناس في شنو و(,,,) في شنو

ضربت مقدمة مفراكتها على كفها الأيسر الذي قصد مباشره لسانها المتدلي
هزت المقود ببراعة منقطعة, صرخت دم دم دم , اندلق القدر ليملاً المكان
سيلاً من الدماء, فزع موسى لفظ غيلونه الوراثي من فمه, رفع رجلاه
المتدليتان من على الأرض التوى على نفسه وعلى ماورا, تعانقا بل كادا أن
يدخلان في بعضهما, امتزج عرقهما, التصقا أكثر كلاً يتنفس في صدر الآخر

ربما احدهم يقوم بعملية الشهيق والآخر يتكفل بالزفير، صرخا معاً، هرول دينق مشمراً حرابه قلبه ينبض بشدة لم يجد ما يبتلعه في حلقه، وجدتهما هكذا ملتصقان مرتعدان، كتلة من الرعب تملك أطرافه، استجمع قواه، سألهما ما الخطب؟

كلاهما بصوت واحد متقطع :

- دم دم دم

نظر دينق إلى الأرض، اقترب أكثر، استنشق الأمر، هدأ قليلاً وبدأ يضحك بهستيرياً مفرطاً مضيئاً:

- قرع، ملاح قرع

ثمّة من يضحك بالخارج، يقهقه عالياً، إنه شيخ يُور الذي أخذ موقعه بالقرب من المكان حاملاً قوسه، قفز شبح سولو من مكان ما في الغابة، أوغل داخلها بعد أن رمقه الجميع، ماورا أخذت تصرخ:

بكتلوك أولاد الحرام بكتلوك أرجع



ما يحدث في الزقاق

عندما كانت تأتي إليّ في مناماتي السابقة وصحوي المبتذل بفستانها المخملي وضحكتها الرجولية الأنيقة وغنجها الأنثوي المفرط, لم أكن أعلم حينها هل هي حقاً من تأتي أم أنا الذي كنت اذهب حاملاً كل استفاقاتي, قصائدي, اوراقى الصفراء, حذاء الشتاء العنكبوتي المميز وسجارة تتوسط فراغ علبة البرنجي العتيقة, اجمعها وانتظر لتأتي أو لأذهب محملاً بكل اسباب الجنون وإنفلات المخيلة إضافة إلى ذاك الزقاق الضاحج بأكثر من أنين ومكتظ بارواح متكورة عليها تجد خلاصها الأبدي, هناك من يستمر في لطم الجدار بكفيه اللئيمتين ثم ينزوي حيث يراه الجميع لأن الجميع في الزقاق وآخر يلفظ نفسه داخل آلام الجميع ثم يخرج نظيفاً لامعاً كنصل ملكي وكأنه قسم خطاياهم ولعناته على اجساد غيره المشغولين بالبكاء واللطم ، وأمي تظن بأن الزقاق الطويل الملتوي ليس سوى صراط متشعب يعبره سكان المستنقعات الرديئة, أتذكر جيداً ما قالتها أمي قبل أن ترحل نحو أكثر من طريق أتخيل شكل جلستها الأخيرة وتجاعيد وجهها المسائي الجميل, والآن لا أطلب منها العودة من داخل تلك الرصاصة البوليسية اللعينة, لا أطلب منها أن لا تُخبر والدي عن السجائر وجرعات المخدر والتسكع في الزقاق عن التحمق في السماء وعبر نافذة الجيران الصغيرة, عن جنوني وانتظار الطالبات على الطريق وعن كل شيء فقط أود اخبارها بأن والدي عرف كل شيء لكنه يعلم أيضاً بأن العقاب دون حضورك البهي المنحاز لي لا يُجدي أو ربما لذة العقاب تكمن في الإختباء خلف ثوبك المخملي ومعاناته ليخطف مشقة تجعلني ألتصق أكثر داخلك, هو يُريدني أن أتحمس وجودك, كان دائماً يتقمص دور الجلاد الرحيم ليعمق إيماني العميق منذ الأزل بشخصك الطفولي الذي يدافع دائماً, ها أنا مجرة جسد من بين آلاف الأجساد التي تلتحف ذاك الزقاق العابر أو الصراط المتشعب كما يحلو لك, وقطط اللحوم السوداء

تتلوى علينا لتسرق ما تبقي من طفولة, كنت احاول أن اصرخ (القط,القط يا أمي) ولكن حتى صوتي خذلني وتواطأ مع الزقاق أو ربما مع القطط, حتى صداه تآكل في الفراغ القصير بين تعرجات الجدار الطويل ومداه المنقرض , هي نطفة الشك الأخيرة في رحم العقل التائه كعادته السيئة, حينما بدأ الجميع بتزيين الجدار الأملس بنقوشهم المسممة وإفرازات مخيلاتهم المنبوذة, ليحتفلوا بذاك الضياع وتلك الدوامة الجنائزية, هو صراع يحتاج لشارع شاب يخلف هذا الزقاق العجوز المصاب بالدرن والحمى, حتى أبي بات يسكن سجاده البيضاء, بات يترقب ذلك الثقب الذي على السقف مملوءاً بفكرة أنك ستعودين من خلاله, بات يلعن عقب كل صلاة تلك الرصاصة البوليسية الطائشة التي اخترقتنا جميعاً وقتلتك وحدك, كان من الأفضل أن تستقر في حلقي ربما سيكون الوضع أقل سوءاً بالنسبة لشقيقتي الصغيرة وكلبك العجوز وجارتنا الثرثرة زليخة, هي الآن امرأة فاضلة لم تجد من يسمعها بعدك, لم تتجرأ أن تنقل أحداثها الخيالية لأحد أو أنها تختزن ثرثرتها إيماناً منها بأنك في مكان ما تنتظرينها لتقبلي جنونها وهذيانها الممتد, تماماً كما يفعل أبي, هي فقط من تأتي إلى الزقاق وبصورة ما تقول لي:

- هل عادت والدتك؟

وقبل أن اتخلص من شكلي الحزين لأواسيها تقاطعني مُضيفة,
. لا بأس ستأتي لا محالة

الكل يُصدق بأن ثمة خلل جلي ولج عقلها الذي لا يزال يوحى لها بأحداث يجب أن تقصها عليك لتصدقينها كعادتك, ها هي الآن تقفز نحو الزقاق بين الحين والآخر لتسألني وتُجيب أيضاً و لتؤكد جنونها اللذيذ القبيح , لتؤكد تقديسها لعلاقتكما العابرة السابعة والنصف صباحاً لا أدري هل هذا بتوقيت الأرض أم بتوقيت الزقاق البعيد جداً عن الدوران الحقيقي, هو توقيت مزاجي أكثر من انتماءه لعجلة الزمن الهاربة بسرعة فائقة, أمطار

غزيرة تتساقط بنهم وعنف، الكل يهرب حيث يتوقع أن يأوي ذاته التي تخشى الزكام، حتى سكان الزقاق المتعرج هربوا بشرهة نحو زواياهم المحجوزة قبل أن تنجبهم الأرض وتلفظهم إلى هناك، دائماً ما أصل أولاً لأسباب لا علاقة لها بالقوة والبنية الجسمانية ربما لأنني أخشى المطر أكثر منهم، أمي أيضاً كانت تقول لي بأن المطر يجلب الفال السيء، زليخة تلوح بيمنها من بين الجميع لتسألني مرة أخرى هل عادت والدتي وتُجيب كالعادة ثم تختفي وتتلاشى الباعة الصغار يحشرون بضائعهم في جيوبهم الكبيرة المعدة مسبقاً لظروف مشابهة ويهرولون، غزيرة شانكي بأغفة الخُمرة فقط من تقف عند الرصيف وتستقبل وابل المطر، تُمرر اناملها على شعرها المبتل وتغمض عيناها لتوحي بتلذذ عميق وحدها من بين الجميع تحتفل مع المطر، ربما هي طقوس تخص تسويق الخُمرة فقط أو كما يقول البعض بأنها مصابة بجني مزارع يجلب لها الرزق أو أنها تستمتع بطريقتها كما خيل لعقلي الصغير، الكل حراً فيما يقول حراً في طريقة تفكيره والمدى الذي يستغرقه ليستنبط الصواب الذي يتوافق مع مقاسات تخصه ولا تخص قطعاً شخصاً سواه، على كل سكان البسيطة أن يقرروا في وقت ما أن يخرجوا من الأزقة المتشعبة أو أن يموتوا، أن يموتوا جزء تلو جزء مفصل تلو مفصل إلى حين التلاشي، ليكونوا أشباحاً خالدة وأرواحاً تتصيد الأحياء. قلبي الصغير خرج من قفصه مطارداً ابنة شانكي، إنتزع نفسه بقوة متمرداً يبتغي أن يسكن جسدها المبتل أو حتى أحد قنان (الخُمرة) الخاصة القابعة خلف حمالة صدرها الرمادية الحمراء أكثر، طاردهُ مرات عدة وهو يتسلل ظلماً الزقاق عبر الأجساد المتناثرة لكن دائماً ما يُفقت متخطياً تلك العتمة التي أجهل كيفية التحرر منها، حينها علمت بذاعة أن تطارد قلباً رفضك، رفض التكور ومنطق الأزقة الملعونة، ذاكرتي أيضاً باتت لا تحتفظ بالأشياء المؤقتة، الأصدقاء المزيفين والفتيات المراهقات المستذئبات، روابط الشباب التي تمتاز بلصوصيتها الدائمة والأندية الرياضية المكتظة بمروجي النائم وقطاع الطرق وحياناً القتلة المأجورين

وحتى سراق الأحذية البلاستيكية, جميعهم بصورة أو بأخرى يقطنون الزقاق النتن بكامل عنجهيتهم وزهوهم المزيف, وقلبي ما زال يخدعني ما زال يعبث مع معشوقته تحت المطر الذي حذرتني منه أمي, هو أيضاً يشمله ذلك التحذير الصارم, زليخة مرة أخرى تحشر رأسها الفضولي في الزقاق لتسألني عن عودة أمي ولا تنتظر الرد لا تنتظر جواباً أو ربما تحتفظ بشيء من الصراخ لتوبخ أمي عند لقائهما المحتمل كما بدا لي, وفي طريقها كانت تنتمتم:

- أين أنت؟ لتنقذي طفلك من هذا الزقاق البائس أو لتنقذيني من تلك الحكايات التي تملأني الآن, ثم تطمئن نفسها مضيعة, ستأتي لا محالة, أجمع ما تبقي مني متخبطاً كل شيء إلا الزقاق الذي يطوي نفسه ليلحق بخطواتي التائهة, أحزم أمتعتي في حقيبتك الجلدية الصفراء تاركاً خلفي ذلك القلب الشقي ربما يملك متسع لحزن جديد يضع فيه خيبة زحفه خلف أنثى المطر, الشوارع تختبأ عند رؤيتي, تخاف عدوى الفقد ولعنة الإكترات, الأطفال يرشقونني بالحجارة وبقايا الطوب الأحمر يمشقون ظهري بسياط الكبريت اللئيمة, على الأرجح هم من صنعوا كرههم بأيديهم كرهوا سكان الزقاق المتعفن, كان من الافضل أن يعاقبوا الرياح التي تتكفل بترويح الروائح ونشرها في الفراغ, الفرق الوحيد بيننا أنهم عانقوا أمهاتهم هذا الصباح, لانهن يسكن معهن ولأنك تسكنين داخلي و داخل تلك الرصاصة, هي قلاذتي الآن وتميمتي السحرية لأنك تسكنين هناك بل أكثر من أم يسكن في أماكن مماثلة, لا أنفك عن التفكير في إمكانية التحول المؤلم لشكل وجودها الآن حيث لا أستطيع لمسها أو الإنفراد بعناقها السحري البسيط, كان من المتوقع أن يدفعني هذا الفقد المهول نحو الزقاق, طيفها يتربص بالمقاعد وتخوم ذاكرتي القصية وهي تختزل حضورها الليلي في وضع النهار, تسرق صوري المخبأة وتستدين من "الدولاب" رائحة الملابس ثم تقف على

شرفتي مرتدية ثوب الحداد, كيف لي أن " أدرس " طفولتي في
حضورها وأعيد ترتيب أحلامي الصبية, كيف لي أن اخوض حروبي
القديمة حين تنتهي رغبة الطبيعة وتجعلها تبكي, ما أبشعها حين
تبكي لتجعلني اصدق طيفها وأعود من بداية الطريق على هيئة نطفة
تدور في الفراغ المتناهي, كيف لي أن أترقب العقارب داخل ساعتني
البلاستيكية الصغيرة لتقفز منها أو لتأخذ منديلي الممدود منذ مدة,
منديلي المحشو في سترة أبي قبل ميلادي وربما قبل ميلاده لا يهم



ذاكرة الشتاء

ها هي الشمس تُزيح ستائر غرفتها , تفتح جفنها المغمض فيستحي الليل , وأمي ما زالت تحاول أن تُحيك لي معطفاً من سراويلي القديمة وبقايا عباءاتها التي مزقتها الأرصفة والأمكنة , جدي جالس علي نصف كرسي صارخاً كالعادة في وجه أخي الصغيرالذي تأخر في ملء إبريق الوضوء , هو هكذا يصلي دائماً صلاة يسميها الشكر , هو هكذا لا يملك الوقت سوى للتهجد والورع , وضجيج الحي الذي يرتقي شيئاً فشيئاً إلى الصراخ , صراخ الأمهات , الآباء , الأطفال والمواشي , صوت عرفة وهي تستمتع بتوبيخ زوجها العاطل عن العمل , يؤذيها تمدده على فراش إشتوته من سوق المٌطلقات أو (الدلالة) بكسر الدال .وكالعادة يرد زوجها آدم ببرود قائلاً :

- لا تثرثري كثيراً وإلا سأحضر حواء أخرى

يفتخر آدم بفحولته ورجولته , آدم صورة مصغرة لكل من في الحي , لكل الفوضويين , لكل المستسلمين لمشيئة القدر , للذين طرحتهم قطارات الرحيل وعجلة الزمن , الصباح في هذا الحي غير مُرحب به وكأنه الطفل الغير شرعي للظلام , وكأنه يوم جديد ممتد لا يحمل جديداً , الشباب يقصدون الأسواق والأطفال إلى الخلاوي والمدارس التي لا تختلف كثيراً عنها . الكهول إلى مجلس الشيوخ أو بالأدق ظل الأشجار المتناثرة هنا وهناك تاركين ورائهم نسوة الحي في أبهى صورهم وفي أسمى نرجسيتهم المزيفة وزينتهم المفتعلة , المرغمة , المجبرة , قسمتهم الظروف فيما بعد إلى عاهرات وصانعات خمر , إلى ارامل وثكالي ومعطويين ومنكوبيين , يصارعون الحياة تطرحهم أرضاً ويهّبون مرة أخرى حيث اللا خيار سوى المقاومة والحرب , الحرب التي وضعتهم في هذه المساحة الضيقة جداً , بيت يلقح بيت , سرير يلقح سرير واوكسجين تتسارع الأنفاس لإلتقاطه , أحلام ضاعت في زخم الأولوية والتفاضل , آه

أتذكر مقولة الشيخ إسحق عند خروجه من السجن بل لم تفارق خاطري لحظة واحدة , كان يقول حتي السجن شهياً أكثر من هذا الحي أوسع وأجمل , كُنّا نقهقه فلا تملأ صدى قهقهاتنا فضاء السجن . إنه صدى ألم طويل , صدى شهيق وشهيد , صدى زفير ونفير, صدى حرب لم تنتهي , كُنّا نعانق قضايانا وسياط السجان بفرح ولكن ما يؤسفني أن الموت يخاف المساجين يخاف قلوباً مليئة بالحق , يخشي أن يأخذنا إلى السماء , أو ربما يستحي لا أعلم يا اصدقائي

الخامسة مساء

النسوة يجهزن خمرأ فرغوا من تقطيره ليلاً , الجزائرين غير الشرعين يذبحون المواشي كيري , البغايا , تجار القنب الهندي , الصغار يلعبون كي يتناسوا وجع الصباح وصخب النهار وكل شيء , الموظفين أصحاب الياقات البيضاء , السوداء , الحمراء , أساتذة المدارس والطلاب , أصحاب المتاجر والبائعين المتجولين , الشيوخ الدجالين , أصحاب اللحي الكاذبة ودواوين الضرائب , جميعهم يحتسون الخمر والعرقى جميعهم يمارسون الرذائل , جميعهم يأكلون اللحوم , القاتل والضحية يتكآن على جدار النسيان عسى أن يهربوا من ذاكرة الحرب والخراب . يتركون عقولهم أسفل مؤخراتهم

ضراط النسوة يعبق المكان

ضحكات السكارى كالموسيقى الريكة دون ضابط إيقاع

العسكر أيضاً يأتون في شكل كتائب حاملين على أكتافهم البنادق وفي جيوبهم مرتباتهم التي لا تصل بهم حد الشعور بالدوار وممارسة الجنس , يلجأون إلى التهديد فيما بعد تماماً كغيرهم من المرتزقة والمارقين بمفوضاتهم المعهودة (الخمر بدل الكشة)

وفطومة إبنة المرحوم أبكر تكتفي بالنظر , تحاول أن توثق مخلفات الوطن , تحاول أن تنتقل بعيناها الجاحظتين بين كل الحاضرين , حتي

شباب المدينة المهندمين الوافدين من الأحياء العريقة على ما تعتقد ,
الهاربون من النعيم كما تجود بها عيناها البائستين , الصامتون عن الحق
والحرب والنائمون على جرحها وهم يقهقهون وسط الخراب , هنا يتقياً
أحدهم وهناك من وصل حد الخراء , يدخل المثقفين , يتهامسون فيما
بعضهم يأخذون نصيبهم من الخندريس (ديلفري / سفري) كالعادة وأحياناً
يجلسون بعيداً عن الأغلبية , سيان هما في نظر فطومة , سواء جلسوا
بالقرب من الجميع أو وحدهم , سواء إرتشفوها صامتين أو صارخين ,
فالخمر خمر والنشوة نشوة والجرح جرح والألم ألم .

عقلية السكارى لا تختلف عن عقلية العسكر , لا تختلف عن منطق الموت
والرحيل والتحيز والتملك , إسحق العائد من السجن الوافد من بيوت
العنكبوت , المتهم بالخيانة في منطق قوانين الدولة والعقائد السياسية ,
يجتمع في داره وهو عبارة عن غرفة حظي بها كانت في السابق من ضمن
فصول مدرسة ما , ربما قراره السريع في الهروب من بطش الهامش هو ما
جعله يحظي بغرفة , جمع أصدقاءه القداما للبت في أمر المعسكر قائلاً :

- هل يعجبكم حال هذا الوطن ؟ حال هذه المنطقة التي لا ترتقي
لأيّ من الأسماء , مدينة , قرية , مقاطعة ؟

- ماذا سنطلق عليها ؟

- لا يهم , جمعتم اليوم لأقول لكم شيئاً واحداً . العالم خارج هذه
الأسوار الشوكية ينظر إلينا وكأننا أشباح , وكأننا أنصاف بشر
متطفلين وبكتيريا ضارة , يتسائلون ما الفائدة من بشر كهذا ؟
مجموعة من الحمقى يعشقون الجنس والخمر في كل الظروف ,
يعشقون الإزدحام والإزدحام لمصلحتهم أنا أشفق عليهم بشدة أو
ربما علينا

قبل أن يلفظ أحدهم بكلمة ، جاءت فطومة تحمل خبراً سيئاً ، تحمل خبراً
تعودوا عليه كثيراً في الماضي والآن يتجدد . وفاة العم أمول والدها بعد
الفاجعة والدها الذي تبناها أو ربما تبناها المكان والزمان ، سندها بعد
أن إتكات علي العدم بعد صرخات فراق وقبلات وداع من والدها يعقوب ،
بعد رصاصة حسمت صراع والدتها مع المرض .

كان العم أمول يصرح دائماً بأنه سيموت في الشتاء ، بأنه سيفارق الحياة
محتضناً نسائم الليل العلييلة ، سيذهب إلى الله ليقول له رفقا بفظومة ،
لقد سئم حرباً مع الأقدار أطلق عليها مجازاً مقامرة ، دموع فطومة تسابقها
في الرد ،

الطفلة تودع آخر شخص على سطح الأرض تشعر بالأمان بقربه الأميرة
تلعن يعيناها كل شيء ، حتى ليلة ميلادها ، حتى أول رصاصة وأول
بندقية صنعهما الشيطان ، لقد تعودت أن تعيش حياتها في ذاكرتها فقط
أن تتحدث إلى نفسها دون غيرها ، تعودت أن تموت أكثر من مرة وتدفن
نفسها أكثر من مرة دون فلسفة العزاءات ، آه

ولسان حالها يقول :

- تلك الحروب يا أماه جعلتنا نؤجل كل شيء ، عدا الحب ، ذهبت
بنا إلى مدن الرماد ، ورمت بنا كيوسف في غياهب الجب ، ثمة ندوب
في ملامح الطفل بداخلنا ، ثمة شوق لمدائن الرب ، تلك العصافير
تحلق بأجنحتها بدلاً عنا ، تتحدث بلغة السماء ، وتتنبأ بالهرب ترى
هل نحن تلك الحجارة ، أم ذاك الحطب

شيخ إسحق يدخل خلوته ، يبكي ، يرتل القرآن ، يتمتم ، يسترجع ما فقد
من إيمان داخل السجن ويعود مرة أخرى ليرى فطومة في وسط الكتاب ،
بشفتها اليابستين وعيناها المدمعتين والفتيات يخضبن كفيها .
الشباب يصفقون للعروس الأرض ، يجهزون حناجرهم في نهم وشوق ،

فرح جداً بعد عشرون عاماً من الحزن . مجرة حلم يقظ أودعت قلبه الفرح ,
فرح بطريقته فرح لأن الوطن سيُزف إلى السماء , كان يضحك ويبكي في
نفس الوقت ، رأى لأول مرة فطومة تبتسم ، لأول مرة تتحدث

سأل شبح فطومة:

- , ما هو إحساسك الآن ؟ هل انت سعيدة ؟

قالت:

- لا , فقط قررت أن أنجب طفلاً يُعيد إليّ وطني , أن أفرغ
ذاكرتي على شاكلة جسد يحمل فطومة في داخله



ظلال تطارد أجسادها

كوتر حزين دفن نفسه في ربابة, بشعوذة لحنه وبعده السخي المزين بالارتعاش بذلك الفراغ الطويل الذي يترقب همس المغني, صفير الحمقى المستفز وضجيجهم العارم, تعاليق المسنين, لعناتهم, طعناتهم, عرقهم المتدفق عابراً تعاريج أجسادهم الهرمة, هم مجرة أشباح مثلهم مثل يحيى إدريس, أشباح محنطة فظة ويأئسة أيضاً, يتداركون أنفسهم في الأفق المكتظ بهم, يتسابقون فيه ويسحقون خيوط الخلاص, أشباح المنسيين, المثابرين, لعناتهم المتدفقة على رؤوسهم الممشطة, فرصهم الذبيحة وضجيجهم المستمر, أشباح القتلى والقتلة, المقامرون والضحايا, أشباح ظلال متحركة يتتبعها السائرون نحو حتفهم نحو ظلال أخرى بعيدة جداً, أشباح أشباه مقبورة مخمورة, هم هكذا مستمرون في ظهورهم المرعب ورومانسيتهم الخشنة وهراء لياليهم الكئيبة, أشباح مذهولة من انقشاع الضوء وتصفيق الأشجار ومصائد الساحرات, يهابون خلخال المطر وهزل الرياح العاتية وملاطفة الداعرات, أشباح يرتادون المقاهي ومحطات القطارات التي تمارس الهروب نحو بقاعات مختلفة, نحو عوالم مبعثرة, يرتادون ملاعب الملاعين الستة في مثلث الكون الخماسي ونواصي الأرض خائفين من ظلال حقيقتهم, ظلال خائنة تنوء وتبوء وتتلوى, تمارس كل شيء في الوقت نفسه, جمعة سمك يراوغ الوقت, يبتغي فرصة أخرى ليخوض حروباً جديدة, حروب ليست كتلك التي خسرها مع شبحة الشرس, كما لو أنه استفاق فجأة ليجد المشهد ضده, هي لحظة أفقده إيمانه المزيف منذ البداية, لعن حدسه البائس ومبرراته الهشة, لعن ظله الهارب دوماً أو على الأقل الذي يهرب قبل أن يقرر هو ذلك, تذكر ليالي الشتاء المقمرة أسفل الجبل مع جدنا السر بولات, تذكر حديثه الثقيل جراء البوزة التي تعدها السرة أم ضفاير حبيبة الشيطان كما يدعوها هو, كان

يضيف بين كل كأسين سجدة شكر عميقة تعبر عن زهده, يسرد حكاياته الثملة, كتلك التي تحفل بغزواته الجنسية وصراعه مع الحياة متفاخراً بصوته الضخم وهو يتنقل بين الأغاني على سطح قطار مكتظ بالفقراء ومعدومي التذاكر, دائماً ما كان يحظى بجمهور فوق ذلك السطح, حتى والدته كانت من المعجبات السريات, بعد نهاية كل قصة كان يقول له: لا تقترف أخطاء مماثلة, إياك أن تعتبرني قدوتك يا بني, اذهب للنوم ولا تكن فاشلاً, ربما تنبأ بمستقبلي كما يفعل دائماً بمواعيد إنجاب بقراته الثلاث الذي يزعم أنهن هولنديات, جلبهن والده وهو عائد من الحج, ومبرره الأوحـد لكل من يحاول نفي ذلك بأن هولندا أيضاً بيت الله , ولج الليل منتصفه, بضعة نجوم تلتحف السماء راسمة ألغاز غريبة جميلة, حفيف الشجر ونباح الكلاب الضالة, أصوات الضفادع تفسد لذة السكون وقدسيته, ظل ضخم يتجه نحوي, يغطي الأرض بجناحيه الكبيرين, شبح يحيى إدريس الجندي بشعره المنسدل على ظهره وأسنانه الفضية البراقة, أسنانه الفضية تظهر وسط تلك البقعة الكبيرة من الظل والعممة في آن واحد, أخذ يقترب شيء فشيء بهدوء مخيف, يهمس بين الفينة والأخرى (كدنير, كدنيير, سرنق , سررنق), تملكني الفرع وكدت أهرب كظلي الذي اختبأ تحت شجرة صمغ سوداء محروقة, يترقب ما سيحدث, هل سيلتهمني الشبح حقاً, هل سيأخذني رهينة إلى مقبرة أخناموس العابرة, استنجدت بربي, برب موسى وهارون, برب الأبقار الهولندية ورب جدي ورب الشبح, ضحك ظل يحيى بصوت يحيى الجندي الذي أعرفه جيداً, ضحكة لا تزال تسكن ذاكرتي التي نادراً ما تنسى, آخر ضحكة له قبل أن تنسفه طليقة مدفع ثنائي من أعلى الجبل, آخر جرعة ماء شربناها من شلال عباس, آخر علاقة حميمة أقمناها مع نسوة يحتظبن, وآخر صرخة سمعناها من ضحية خنقها عوزنا ونزواتنا وشراهننا, سحبني من عنقي نحو الأرض, نحو السماء ونحو أشياء لا أعلمها, سحبني دون ظلي الذي بدأ خائفاً حد الالتصاق بحوائط الحي, حتى ظلال السكان اعتلت أسقف المنازل لتراني مذلولاً,

مجروراً، تذكرت جملة كنا نردها قبل أن نلتحق بالجيش، جملة يلجأ إليها المؤمنون الحقيقيون (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، حاولت جاهداً قولها بتمتمة تسمعها الآلهة، هي آخر فرصة نجاة في الوقت الراهن على الأقل، قلتها، قلتها بصعوبة بالغة، أسقطني منتصف الطريق من مسافة أجهلها، اختفى أو ربما تلاشي في الأفق ناسجاً خيوط دخان كتلك التي يفرزها صاروخ بالستي، تفقدت عنقي وأنا أركض نحو منزلي، هي لحظة تصورت فيها حياتي السابقة، حياتي الفاشلة بلا شك، دخلت في نوبة ذهول عارمة، يداي ترتجفان بل جسدي كله أخذ يرتعش، جلست مرغماً في انتظار بزوغ الفجر الذي لم يأتي سريعاً، عرق مالح يسري على جسدي، عرق الخوف والهول، عرق الذاكرة التي تنبض ببطء، تفقدت محفظتي التي تحتفظ بصور بعض جنود كتبتي وضباطها القادمون من مصنع القرار، تفقدت جميع من يسكن هناك، يحيى إدريس يقف محاذياً لمانتو وجون بأعين شريفة، سن الفضة يبرق حتى في الصور من فمه ذو الشارب الكثيف، هي صور التقطها أحد الجنود العائدين إلى الأماكن الآمنة أثناء استلامنا الموقع العسكري المحرر جزئياً كنا نقف جميعاً لأداء التحية العسكرية للجرحى والقبور الجماعية، مصطفى بعشوم يصرخ بعدها كعادته وكعادة القادة :

- (وداعاً أيها الأشاوس، أبقو عشرة على البلد)،

كنا نقف دون ظلال تقاسمنا المشهد، ربما هذه هي لعنة الظلال الراضية لمنطق الجنود، ظلال تطاردنا الآن لتعاقبنا على الأرجح

- يا إلهي، كيف؟

- أيعقل أنك لم تغفر لنا!

أخذت حقيبتني الصغيرة محاولاً الابتعاد عن هذا المكان المرعب، من تلك الذكريات التي تطاردني، لحظه أشبه بأن تهرب منك فقط، تهرب دونك، من تلك الأشباح التي تتلصص طريقك، ربما جدي بولات سيستطيع أن

يحررني من شبح يحيى الذي سيقتلني لا محالة, طريق القرية المعبد بأفرع
الشجر وروائح البراز النتنة, براز الحيوانات والبشر على حد سواء, أبار
المياه الجوفية المغطاة بالخشب ومزينة بالدلو, قطعان النعاج والأبقار
وقطيع البقرات الثلاث الهولنديات خاصة جدي, نسائم الفريق العليلة لم
تفلح في إيقاظ حواسي المتوجسة من ظلال الأشياء حواس حبيسة خوف
ممتد قاسي, تملكني إحساس متذبذب بالأمان, إحساس غير منطقي, غير
دقيق, بعد أن أقيت التحية على جدتي وشقيقتي مريم لم تدم تلك
الابتسامة وذاك العناق طويلاً, سألتهما عن جدي السر ليشيران لي نحو
شجرة حراز كبيرة تتوسط مزرعته, خطوت نحوه بخطى تعبئة كمن وجد
الخلاص أخيراً, كان مشغولاً بالغناء خلف الراديو وهو يرقص, أمرني
بالجلوس مبتسماً ثم بإشارة غريبة فهمت منها أن أشاركه الغناء, هو هكذا
يخلو بصديقه الناشيونال وكأنه يختبأ من سواه, بدأت أغني معهما ومع
محمد الأمين ذو الأنفاس الطويلة

- كبرت كراعي من الفرخ نص في الأرض نص في النعال , آه
يا سعاد آه سعاد

لم أكن في موقف جيد يسمح لي بمواصلة الغناء وجدتي ما زال يتابع
ويصفق بطريقة مستفزة, لاحظ شرودي وهلعي المستمران, لاحظ عيناى
المتنقلتان نحو كل الاتجاهات, ربت على كتفي وهو يُدير عجلة الصوت
التي على الراديو متسائلاً,

- ما بك , يا بني ؟ ماذا أصابك ؟ تبدو عليك علامات أرق
جمّة, قل لي هل أنت بخير ؟

وضعت رأسي على صدره الدافئ, افتعلت عناق طفولي أقرب لرحلة بحث
مضنية عن لحظة أمان, دموع ساخنة أخذت تتدفق بشراهة, دموع تعبر
عن ندم حديث النضوج, تعبر عن خوف طويل وهواجس ممتدة, عن
ظلال الأمكنة وأشباح الشخوص وطقوس الموت الجماعي إضافة إلى

يحيى إدريس اللعين و أشكال الضحايا الفوضوية, كدت أخترق صدر جدي الذي احتواني بكامل هشاشتي وجبروتي ورعبي, كدت أخترقه لأبقى هناك مدى الحياة, يدها تعبشان بشعر رأسي الخشن تتخللان مناطق لم تصلها الماء منذ مدة, فالخائفون لا يحبذون الإستحمام, لا يحبذون أن يتعروا أمام ظلالهم, هذه السمة ملازمة لجميع القتلة متسخين دائماً روحاً وجسد حتى وإن أخفوا ذلك تحت البدل والمعاطف والعطور الأجنبية, سألني بنبرة مواساة أنيقة, راجياً أن أحدثه عن فجائعي التي أرغمتني على البكاء, هو هكذا يتألم نيابة عن كل مجروح وعن جميع سكان الأرض, بخطى كهلاً يتربق تلاشى أحفاده واحد تلو الآخر اتجه نحو المنزل ليزودني بجرة ماء تدفعني للاسترخاء, وكلما ابتعد خطوة اتخذ هيئة يحيى إدريس, وقع أقدامه تنوء ووقع آخر لظل كبير يقصدني, وما أن تلاشى اكتملت صورة الشبح المرعب, صورة يحيى تطاردني من جديد, ركضت عكس اتجاهه ركضت كمن يطارده جميع جنجويد الأرض, كنت واحد منهم في ماضي قريب, لم أستطع تجاوز ظله بعد كل هذا الجهد ما زلت في متناول الشبح اللعين, سقطت, سقطت, حاول أن يتلغني بعد أن قال لي حرفياً:

- C'est la fl هذه هي النهاية

أفزعني ظل يحيى, لغة أخرى اتخذها الشبح, لغة أخرى لا أفهمها, يحيى إدريس الحقيقي أيضاً لم يكن يعرفها, حتى لغته المحلية كانت ركيكة بعض الشيء, أوما برأسه في اتجاهات مختلفة لم أعيها, أخرج من ظله ظل آخر صغير أدخلني فيه ورحل متمماً باللغة الفرنسية, لغة حزينة سوداء كذاك الظل الذي أسكنه الآن

- Tue s coupable ساقتل مذنب

أنشى مزيفة

عبر حناجر العصافير نبكي, نغرد, نهتف, نشور, عبرها تماماً نفعل كل شيء
كأرواحاً فضحها البكم أو كأحراراً استعبدتهم اللغة, نفعل كل شيء عبر
العصافير عدا الطيران تحلق وحدها لتنثر أصواتنا الهشة في الفراغ, ثمة
شعور سيء يعتريني ربما صديقي فارس أيضاً تنبه للأمر, تنبه لشروذي
الدائم المستميت هو لا يحبذ أن يسألني عن التفاصيل التي أخبأها, دائماً
يعيرني براح خاص أتسكع فيه وحدي, جلست أمامه ذات قهوة بكامل
أناقتي وكأني في مشوار سواه هو يعرف كل محاولات مداخلتي اللعينة
يعرف تلك التجاعيد التي تكسو وجهي, ودون تفكير طويل أو حتى مزاح
لطيف هاجمني بتودد,

- ماذا تود إخباري؟

تباطأت قليلاً محاولاً التريث, ابتلعت جزء كبير من كوب ماء بالقرب منه
ثم أردفت:

- أحبها يا صاح, أثارت جنوني,

ابتسم فارس بل طالت ابتسامته التي عهدتها دائماً في مواقف ليست
مشابهة مضيئاً,

- أخيراً اصطدمت بشخص سرق منك وقارك, من هي؟ هل
هي ماركسية مثلك؟

تناولت كوب قهوتي لأفلق في إيجاد عبارات توصفها على الأقل لكن دون
جدوى,

- الأشياء الجميلة لا تملك اللغة جمالاً تنصفها, لكنها باختصار أكذوبة
ممتدة قابعة في جوفي الممتد أو ربما باقة ورد سقطت على صدر

جندي نفذ منه الرصاص, امرأة وليست امرأة كبراح مطوي تحت
وسادة, وأنا حزناً يمشي, بندقية صدئة, عطر نسائي كان حاضراً بقوة
في أسطورة الموت بالمحاليل, منحت قلبي للطريق والشمس, رجل
وليس برجل كنصف ابتسامة مسروقة من جيوب الفقراء أو من جثث
هاربة من النص

- لقد غرقت, أنت مليء بها يا خالد, لم تقفز في مخيلتي أبداً أن هناك
شخصاً ما على مستوى البسيطة يمكنه سرقة فؤادك, ها أنت كما لم
أتوقع جرد في مصيدة لا يحاول الفكاك حتى, سنلتقي مساء لنخوض
في الأمر إن أحببت ذلك,

قالها ولم ينتظر ردي هو هكذا يحتفظ بجزء من وجهة نظري في رأيه, سد
الفاثورة ورحل, صحبته بنظراتي إلى أن تلاشى, بعد لحظات وجدتي أزرق
الطريق المؤدي إلى المنزل أو كما يحلو لي تسميته النزل, تمددت على
كتاب نسيت أن أطويه ليلاً, صفحة دافئة احتوتني كلمات مشوقة تهرب
لتعانق أقواس عجمية محاصرة, كلمة بذية تجلس وحدها تهرب من سطر
إلى آخر تحبذ المكوث بين الإشارات, أصوات كلمات من صفحات أخري
ثرن ضد اللغة, صفحات فارغة غارقة بدماء حسناوات صنفتهن أبجدية
كاتب متحيز, وعدت مرة أخرى على صورتها المطللة من نافذتي الصغيرة,
مرتديه أبهى وجه من وجوهها التي على منضدة غرفتها, تسللت داخل
الكتاب, كنت أراها وهي تدخل صفحة ما, كنت أراها وهي تتوسط كلمتين
متناقضتين كلمتين صبيتين, وضعت ساقها على فاصلة مقابلة راسمة
ابتسامة خفيفة ثقيلة في نفس الوقت, عيناها تشعان فأتقمصهما, أعيرني
بعض براءتهما أشحد نصل عيناها لأراني من خلالهما شرعان يرسمان نيلاً
نيلاً يتلذذ بصقيع المساء شرعان يختزلان الحياة في مغازلة الرياح
وكعجوز أيقن أن ذاك الطريق لا يؤدي إلى الرب أقفلت النافذة وأسدت
الستار كي لا تهرب كي لا تتلاشي, خشيت إزعاجها, قبلت الكتاب ورحلت

بعد أن أحسست برنين هاتفي الذي دائماً ما أضعه في الوضع الأخلاقي،
أسرعت في الرد إنه فارس يطلب مني الذهاب إلى نادي الأدباء لحضور
حفله السنوي، أو شكت أن أعتذر لكن تذكرت بأنني مشارك أيضاً، قبلت
الكتاب مرة أخرى ثم أدلفت :

- لا تخافي سأعود لاحقاً

جلست بالقرب منه في سيارته البالية التي أدعوها مهازحاً السلحفاء،
تفقدت علبة سجائر تقبع يمناي وأخذت أنتقل بين التفاصيل الممتدة،
أنتقل دون أن ألتزم بتحليلها مستمراً في سحب الدخان الذي يبدو ممتعاً
للغاية، مستمراً في خلط قضيتي وحببتي وحلمي في قصيدة واحدة أرميها
من على مسرح الأدباء الذي نقصده، قصيدة اختصر فيها كل شيء
بالتفصيل، لم أتنبه حتى أمرني فارس بالنزول، تنقلت ببصري عبر الحضور
عبر الممرات الصغيرة، صف أمامي مكتظ بالدبلوماسيين وصائدي البشر
مليء بمخلوقات الزومبي، ملأت بطونهم المترهلة تلك المناضد الصغيرة
المحملة بصواني الفاكهة وقنان المياه والعصائر التي تشبه الدماء، لصوص
الوطن يقبعون أمام الجميع، هم هكذا أمام الجميع عدا في الدفاع عن
الوطن عدا في الأمراض والأوبئة وفوهات البنادق، انسحب جزئي العاشق
من جسدي وهب ذاك الجزء المتمرد، الجزء الرافض للتطويل الجزء
المنحاز للفقراء والعدالة والمظلومين، حتى حببتي غادرت قلبي المكسور
أوربما انزوت في ركن ما غير آمن، ركن قد تصله بعض الأبيات الضالة،
أدرك فارس أن ما سيحدث لا يحمد عقباه أدرك أن عملية انسحاب فاشلة
ستدبر بعد هنيهة، ذكر أحدهم اسمي للتو، وبخطى متلهفة وجدت نفسي
على المسرح، شخص ما أعرفه جيداً أخذ يرتعد وكأنه يحاول الدخول في
ذاته، بدأت أرسم لوحة فنية على وجوه الشرفاء الذين دائماً ما يجلسون في
المؤخرة، دائماً ما تُحجز لهم المقاعد الخلفية، لوحة فنية ضخمة متشعبة
حيث كل من في القاعة وجد نفسه كما يجب أن يكون وأيضاً كما يجب أن
لا يكون، اللصوص والبرابرة والفقراء والتجار الجشعين والنخاسين حتى

حبيبتي كان لها موقعاً هناك، أعشقها حد الهذيان، كنت أراها في وجوه كل مخلوقات الأرض عدا الإنسان، وكناقوس من طين أهمله رواد الكنيسة أو كمنظفة في كف عاقر أنجبت فيما بعد زهرة أبكي لتستعيد الأشياء شيئاً من التوازن، ربما حيلة أقنع بها الجزء العقلاني مني لا أدري، فقط أبكي وحدي معانقاً شبح الأرض الممتد الذي لا يملك أذرع تطوقني أو لغة تواسيني، ودون شعور أخذ فارس هيئة الأرض وكطفل صغير احتضن أشلائي وقصيدتي، هو هكذا ينتشلي من مواطن الحزن الدفين محاولاً سلب الرعب الذي يسكنني، أودعني منزلي وذهب إلى حيث تنتظره زوجته آمنة التي تعتبرني أخاها الصغير، لمحت غرفتي ذات الأبواب والنوافذ المواربة إيماناً مني بعدم إغلاق المعابر لأننا دائماً ما نترك فرصة للعائدين للذين تقاسموا معنا حياتنا للذين خرجوا آخر الليل دون أن يخبرونا وللذين لن يعودوا، خرجت حبيبتي من ذاك الكتاب، قبلتني راسمة ابتسامة شقية كفيلة بأن تذيب نبي ملتزم، مررت أناملها على تقاسيم وجهي الأفريقي الجاف، أصبحت في عالم آخر، قافية هاربة من فم شاعر برجوازي تعبر أمامي، خريطة هاربة تسأل العابرين عن هيئة النقل النهري، ربما سقطت من جيب سفينة أو تايترك آخر، ظننت أن زراع المسافة أقصر من أن تفتعل لقاء عابر، أقصر من أن تكتب رسائل، ها هي ممتطية جواد الليل وأنا محارب يمشي وراء قافلة المقاتلين يمشي محاذياً لهودج الأميرة الفاتنة ليضرب الحمالين كلما هزلت أمشاطهم، أميرة راقصة تحبذ الاستحمام، رأيتها أكثر من مرة أثناء ذلك، لمحت كيسلي الأوغندية وهي تدلك ظهرها الناعم وأفخاذها وأنحاء جسمها المتورم حتى ذاك المنعرج الذي يؤدي إلى الهلاك، تغمس الأميرة داخل ماء الورد الأكثر قداسة من أن يلامس تقاصيلها، وحبيبتي تشق أودية الغابة على جواد، ما أجمل من أن تسافر عبر قبلة إلى حيث لن تأتي بكامل رشذك، رحلة عبقة عبر الجسد وصراع يكون فيه العقل خاسر دائماً، وعند عودتي من رحلتي تلك لم أجدها، تبخرت هكذا في الفراغ أو ربما تسللت داخل الكتاب، انتابني نوبة

حزن عميقة, حيز من الدفء يتدفق, تشتهيهِ أطرافنا وتبحث عنه في جيوب المعاطف الفارغة من الصور وثقوب يتجدد عمقها, خطوط لا تنتهي, نظرات مجهولة يتبادلها المارة, أسئلة مبعثرة على الأرصفة المتهالكة, جوازات هاربة نحو أوطانها ومشردين يمقتون الصباحات المفتولة, رسائل ورقية ممزقة تجمعها رياح الأمسيات, أصدقاء بارعون في التنكر بارعون جداً في خلق مشاعر متناقضة, تلفاز صغير شامت ضاح صنفه والذي ملحد وصنفته أمي ماركسي, بقايا أقوام سابقة تتجدد في ملامح البعض, امرأة نحيفة هجرها زوج جلاد جائر تستنجد بست الودع باحثة عن حل لا ينزل من السماء, راهب يرتدي حمالة صدر نيابة عن ذوات الصدور السائبة, تلك هي الحقيقة عندما تتجلي في أبهى صورها وتضع المساحيق النسائية داهمتُ فارس الذي يسكن ليس ببعيد, دون أن أطرق الباب أو حتى أن أصدر صوت يوحى بذلك, هي عادة غير أخلاقية لازمتني, قادتني خطواتي التي لا أتحكم فيها عادة إلى مكتبه الصغير, أثار ليلة البارحة جلية على المكان, بدأت بتقليب الكتب متفحصاً عناوينها, تباً إنها أجاثا كريستي, لا أعلم ما هي الأسباب التي جعلتني أحب أعمالها ربما عشقي للتلصص وبوليسية الأشياء من أهم الأسباب التي جذبتني, آمنة بخطى متفحصية وصلت مكتب زوجها, أضافت بعد التحية:

- قهوتك على الغاز,

وكانها علمت مسبقاً بقدومي, أجهزت على كتاب تلو كتاب وفي كل صفحة أشعرها أجد حبيبتني بكامل زينتها, تمارس قفزها الطفولي بغنج الأنثى الناضجة, تحتم عليّ أن أعيش معها قارئ يلتهم الكتب لا شيء سوى لقاء أنيق مع امرأة تلتحف الورق, امرأة خُلقت من ضلع أكثر اعوجاج, مبهمه, غامضة, رحيمة, لعينة, هي مجموعة أضداد وتناقضات ممزوجة في جسد هارب من سريانية اللغة أو ربما فينيقية الأبجدية لتبلورني سطرأ ركيك من فائض الحب .

أصحت كمن يبحث عن أنثاه التي لم تبلغ والدتها الرشد بعد في حفل تنكري، كلاً بقناع يفضله، بضحكاتهم المجلجلة ووجوههم المسخه ووقارهم المزيف، ربما هي أيضاً تحت ذِيّ ما، ذِيّ غير الذي سحرتني به، أنيابهم تمتد خارج أقنعتهم تمتد لتلتهم لذة الوجود، لعابهم يسيل من فرط النشوة، أضواء خافتة تمر الأشياء عبرها بسلاسة ومكر بائنان، جدي الثالث عشر اسحق موكورو يجلس في ركن نائي عن الجميع بقناع بدائي تُبقي لحيته خارجها، يغني بصوت غليظ بشع، جدي فقط من كانت تنتشي وتستمتع لطواحينه الصوتية، هو فقط من كان يظهر واضحاً خلف قناعه المطبوع من جلد الذئب الشيطاني ربما صوته ولحيته يقودان إليه، موسيقي مرعبة تكتنز المكان وتحبس أنفاسه المختلطة بالصراخ، يستغل البعض لحظات مشابهة لطرح مخاوفهم لإخراج ما لن يستطيعون إخراجه بوجوههم الحقيقية، نوبة جبن قاسية تتلبسهم، جدي إسحق سقط على الأرض كذبيح بوسني، زبد ناصع يتدفق من فمه ذو الشارب الكثيف، أزحت قناعه الذي لا يشبه الأقنعة الأخرى ليستطيع التنفس أو لأصطنع له ذلك، لكنه زفر آخر أنفاسه، رحل إلى حياة أخرى كما يجب أن يكون يا إلهي _ جدي يقف قربي، صدمة مميتة تلبستني، أزل أحدهم القناع، رباه إنها خديجة ماركي متنكرة على طريقة جدي (إسحق موكورو)، حبيبتني المقنعة التي سكنت كتاب ما في غرفتي جثة ممددة أمام أشخاص زائفين، تركتني حقيقياً لتموت مزيفة، أو ربما كان مقدرًا لها أن تموت في حفل تنكري

مشاهد محذوفة

ذاك الصدى المجروح أنين صوت ودوي صرخة ومحاكاة مأساة الروح العالقة بذاك الجدار السوداوي ، العالقة بعنف ، المنقوش قبل الجدار المزدحم بالخطوط المسننة، الإحساس بالرغبة في تكذيب مشاعرنا لافتعال فرصة للهرب أو الإفلات بطريقة ما يتجلى في الدواخل، ورغبة أخرى مضادة تنسجها الإرادة لتصارع ذاك الرعب المهول أيضاً

أدمعت عينا السماء ذاك المساء، ذاك المساء المُعد مسبقاً في مخيلة الرب، الأمطار لا تتوقف _ الفقراء خارج منازلهم خوفاً من سقوط الأسقف المهترءه وغرف "التبتي" يتساءلون متى ستسقط؟

يرمقونها وهي مبتلة تماماً، يسيل منها الماء الممزوج بالطين مثل ما يتصبب العرق المعتق المختلط بقطرات الماء التي تقبلتها جباههم، النسوة يدثرن أنفسهن وأطفالهن بجوالات السكر الفارغة والشباب يهرولون لفتح المجاري تحسباً للغرق _ تحسباً لطامة كبرى قد تهبط عليهم، الفتيات يجمعن الأواني والملابس المبعثرة هنا وهناك ويعدن ليجلسن بالقرب من الجميع بأجسادهن المبتلة وملابسهن المتلاصقة على مفاتنهن ليتقاسمن غطاء الجوانات الذي فوق الجميع ويتصارعن معهم في السحب إلى أن تستحي السماء التي لا تستحي سريعاً ، الشيء السيئ حقاً أن "التبتي" يسقط لاحقاً عندما تتوقف الأمطار ويأتي الظلام عندما تصمت جميع الخلائق عدا أشياءهم التي تتحرك، بضعة همهمات وتأوهات _ ففي الشتاء ليس هناك دفء في المتناول عدا أحضان بعضهم هي لحظة ينسى فيها الفقراء عوزهم ويختزل الغنى في نشوة

يونس يحبذ الخمر في هذا التوقيت بالذات, يحبذ الطرق المؤدية إلى بيوت
الأموات وبالأدق خمارة هدية بت الشيخ, حيث أن نشوة الخمر في الشتاء
تضاهي النشوة في غيرها من الفصول, حيث يعود التائبين والشيخوخ
المزيفين إلى مزاوله النشاط, هي لحظة تتزين فيها الخطيئة لتظهر بأبهى
صورها _ جلس يونس مع من عاودهم الحنين إلى تلك الفاتنة وهبة بت
الشيخ أخذت تضحك بشراهة, ضحك ينم عن عهر عميق كما علق احدهم
ثم أردفت :

- ما قلتو خليتها , بقت حلال ولا شنو

لم يعلق احد سوى مُسن في إحدى الزوايا بصوت متقطع جراء الثمالة

- هو عرقي البلح بتخلا والله إلا الموت

دس يونس بضعة جنيهاً في أثدائها, حركهما بابتذال ليستقر إبهامه
باحدي الحلمتين المكفهرتين وبعد اخذ جولة شبه دائرية بشكل عشوائي
حولهما عاد بنظره متسائلاً :

- هل هو بكري؟

هي بشبق الأنثى :

- ماذا تقصد؟

- العرقي طبعاً

هي بعد أن أصدرت ضحكة مجلجلة غلفت بها أحاسيس تحركت داخلها
للتو:

- أكيد

ملاً كأسه الضخم, تناوله في تلذذ يوحى للناظر بأنه سكير قديم واخذ
يسترسل في أحلامه البائتة المنبوذة من قوة ماورائية كما يعتقد والمعرقله
من جهة.. ما, قال في نفسه ثمة أشياء عندما تتعمق فيها ستكتشف كم

كان أيمانك مزيفاً ، العجوز الثثار لا يكثرث لشيء ولا يبجل قدسية الخمر إذ يضح ويصرخ ويصدر أصواتاً أشبه بالضراط من فمه الواسع وشفته الكبيرتين، ربما هذه طقوساً تخصه عندما يصل حد النشوة، أخذ يدندن بصوت بشع مقطوع من أغنية تخص الحقيبة وفوراً قاطعه يونس مجاملاً:

- صوتك جميل يا صاح عليك مواصلة الغناء،

في الوقت ذاته ثمة سكارى آخرين في منزل مجاور يرقصون على إيقاع أب قزا احتفاء بعيد مجهول صنعته الثمالة الممتدة، عيد أسطوري يحظي بوزن ثقيل في وجدان المنسيين، شيء ثقيل جداً أن ترافقك طفولتك إلى شبابك، كأن تستحي من الغرباء، كأن تبكي عندما تؤلمك الأشياء، كأن تتكور في مضجعتك معانقاً وسائدها السمراء الأبنوسية التي تشبه والدتك ذات صقيع نافر، والدتك التي تخشى الظلام دونها فتعود منتشياً بعدة طرق _ خمر أحياناً ودُماً أحياناً أخرى، نشوة يستلذ بها جسداً ممتد، نشوة خمر أو نشوة خمر أيضاً وحزن عميق يأخذ هيئة رغبة عارمة للرقص رقص عشوائي على ضجيج الذاكرة العتية وألحان تبدو شيطانية إيمانية نوعاً ما، حريراً مهتك كان في المهد ثوباً جهنمي لأنثى يوسفية عُرف فيما بعد بأنها ماتت ليلة ميلاد الحرب، وخيرير مياه متكثلة تعدو بجانب اليم المنهزم _ يم يبتغي النجاة تماماً كخمرنا البلدي الذي يسعى للانزلاق من منطق الصواب ، لا. لا، هكذا كان هتاف السكارى البعيدين عن مفردات المدفع المُغني وصوت الضحايا، هي أغنية لكنها ليست من صفوة الأغاني المرغوبة فأحياناً نشتهي ما يجب أن لا نشتهي بتاتاً كلقاء أبدي مع من سقطوا منّا ونحن نمضي .

جاء الصباح البهي على صوت جارتى ريميلة بائعة ست الكمونية وهي تستنجد وتستغيث بسكان الحي، تستنجد بما تبقى من إيمان في قلوب

انصاف المؤمنين, فزعت من مرقيدي _ هرعت إلى حيث الصوت لأجد
رميلة تولول وتضيف بين الحين والأخر تمتمات ميزتُ منها :

- هوة غرفة التبتبي على صفاري

استدرت لأرى من الآتون لكن, ليس سوى محجوب الدرويش مهرولاً منحنيماً
جراً ثقل مسبحته, مسبحة اللالوب وبعض المخمورين وهم يحيكون
الطريق ملبين نداء رميلة _ نبشنا الحطام وأزلنا كل شيء, أسرعنا في
عميلة النباش وفي عبثنا المضني تذكرنا أن رميلة لم تتزوج ولم تحبل بعد
بل لم يضاجعها احد سكان البسيطة, وقبل أن نعلق على الأمر هاجمتنا
هبة بت الشيخ قائلة:

- رميلة شاربة دُما كالعادة لكن انتو شاربين شنو

وأخذت تضحك بخبث وعهر جليان حتى أن نهداها كادا أن يقفزا من خلف
ملابسها نهداها اللذان لم تكبلهما بحمالة صدر قط, وكأنهما مصيدة أنيقة
أو شهابان يطاردان شيطان الرغبة, آه إن رأهما الشيطان حقاً لباع النبي

غادر الجميع دون تعليق, نقع أرجلهم تفتعل غبار متعرج ثمل يتموج
ويمور, تنقلت بنظراتي نحو الفراغ اللامتناهي, عدت على إحساس شخص
ما يربت على كتفي لأجد محجوب الدرويش يربت على جثة هامدة ليذب
فيها نصف روح, أشار لي نحو بساط منسوج من سعف النخيل الهارب من
شمال البلاد_ أمرني بإيماءة تعني الجلوس او هكذا خيل لي, قال بعد أن
تمدد بقربي واضعاً مسبحته التي تمددت أيضاً جراً طولها المفرط وكأنها
تعبّر عن زهد وإيمان درويش غريب الأطوار, ولأنني لا أعني علاقة الدين
بذهاب معظم العقل بدأت أترقبه بدهشة وخوف في نفس الوقت تائقاً لما
سيقوله , زفر نفساً قاسياً لم يبدو كذلك عند شهيقه ثم أردف:

- هل تدري لم احبك يا يونس؟ لا ادري لماذا_ هل لأنك لا تشبه

البقية ام أن البقية لا يشبهوك , لا اعلم

أشار لي نحو شجرة طلح كبيرة بالجوار ثم أضاف_ جميعنا ننظر إلى الأشياء وفق اهتماماتنا فهناك من يرى تلك الشجرة ظلاً جميل وآخر يراها بل ويتخيلها مخلوق يستحق الحياة كالبشر تماماً واحدهم في مكان ما يسن فأسه ابتغاء قطعها وفق وصايا نسوة الحي,نحن لا ندري من نحن بالنسبة لحطاب بالجوار أو لإمرأه حديثه الزواج في مجتمعنا المتحرك_ المتحرك نحو ضدين أو أكثر , أو حتى للعابرين

يونس والدهشة الواثبة توأ فوق وجهه:

- الغابات لا تسكنها الأشجار وحدها يا محجوب, أظنك تفهمني_
ثم ما الذي دفعك لتحبني مع أنني أشبه البقية, أسكر وانتشي
مثلهم أتناول كمونية رميلة وأضاجع البغايا ولا أصلي أيضاً

هو بعد أن رسم ابتسامة عفوية:

- ثمة إنسان داخلك, ثمة جزء كبير منك إن لم يكن معظمك يأخذ
هياة نبي, شخصاً معتدل خلف وجهك المشاغب

هب يونس دون أن يتفوه بكلمة قاصداً الوادي المحاذي للمنطقة تاركاً
محجوب يقهقه ويصرخ, وفي مشواره تذكر أنه يكره فكرة أن يتقمص
ال دراويش ادوار الآلهة بل ويستبعد فكرة أن في مرحلة ما من الإيمان يفقد
الإنسان توازنه, جلس على الرمل كنسر تائه حلق في سماء ممتدة قص
مخالبه كي لا يرعب الرياح, أطلق العنان لجناحان ملاً الرفرة فوق المدافع
_ شيد سجنه الأبدي في دهاليز فضاء رحب ليصطدم بنبي خرج خلصة
من جنة ما ليسقط أمام صياد أفريقي اتخذ الغابة مخبأً

الحادية عشر مساء بتوقيت البلاد حيث خطوط الطول لا تأبه بمشاعر
البشر ولا حتى لخط الاستواء دوراً في الواقع, نعقد صفقة وهمية مع تلك
الغيوم الممطرة لتذهب بعيداً حيث الكل في بناياتهم الإسفلتية المسرمكة
والمزينة بالإنترلوك الذي يشبه إلى حد كبير بسكويت الجندي, ركائز من

ورق تقضمها الرياح حيناً وأخرى تحاول الهرب من بطش الأوتاد المغازلة,
غزل عنيف منقطع, لنجدنا غرباء جداً غرباء خرجوا من عمق المألوف
لينسجوا وطناً وقلوب لا تصدأ وحق هزمه باطل منسوخ من أباطيل عديدة
ممتدة, غرباء تدفعهم أحاسيس الفقد والعناق والارتقاء على أحضان دافئة
مركونة في زوايا لا تشبه زوايا الاختباء, غرباء عانقوا فراغات الجمل والأرطف
المتسخة بأيادي الأدباء المزيفين الخاضعين لأصحاب الياقات الفلوكلورية,
غرباء جزأتهم المأساة إلى مضامد, أنثى على الرصيف تجمع جروح المارة في
قصيدة تجمع أنين المكان مع الزمان لتسرقهما طفلة وتتبخر كأنشودة
حذقه تتلوي بين الحضور لتكون في غد ما نطفة تلتحم بمهبل الخطيئة
لتحبل وتلد نبي سيقول لنا فيما بعد تقاتلوا وفيما بعد أيضاً سيقول الرب
لم يُأمر بالرسالة, لنعود كغرباء ناموا فوق نقطة لحرف قصي في صف
الأبجدية الطويل .

هبة بت الشيخ تصنع عشاء يكفي لمن يحظي بمعاشرتها منتصف الليل
بعد نهار قضته في تقصي سراويل السكرى , هي دائماً تبحث عن أشياء
ضخمة تفتت به صخور جماحها, لا ترضخ لأصحاب الإمكانيات المتوسطة
بتاتاً _ أطفال الحي يتسابقون دائماً دون أن ينصبوا خطوط نهاية أو ربما
سباقهم سباق أبدي حيث القبور تتكفل بإنهاء اللعبة, تتكفل بمن
سيصلون إلى الجهة المقابلة وكيف, يضحكون في وجه مختلف المآسي
والأقاصي, يطاردون حفل الشواء ودور المآتم ليسدوا رمق الليالي البائتة,
وأناشيدهم تُعبر دائماً عن المفارقة بين الوجود والعدم, حينها تذكرت
أنشودة كتبها صديقي ميانق مقوق ذات حزن يقول مطلعها:

بياض ذقون مصبوغة بلون النفاق

مبنية فوق قبة وخدم

محمية بجهل القطيع

دين مقسم قبتين

لا عيب في ديك يؤذن في الكنيسة

أو قس يرتل آيتين

مطر وابل يستأذن الهطول الآن, يستأذن فض الأسواق الشعبية وأندية الضالة تحت أشجار النيم الظليلة, يستأذن هدم معظم المنازل البلدية التي لا تقوى علي الوقوف, يستأذن ثم يأتي دون انتظار الرد والقبول لنهرب من جديد صوب الفراغ خوفاً من مأل مستور معلوم في نفس الوقت, تزداد أسعار القنب الهندي في مثل هذه الأيام بل تكاد تكون فوق الممكن وفق أسباب لا يعلمها حتى المدمنون, أسعار البغايا أيضاً تتضخم حيث يختلف من سن إلى سن وطلح او دون طلح ومعايير أخرى اجهلها
تأوه يونس ثم أردف:

- في وقت ما من ضمن المستقبل سندرك كم كنا عصيين بعيدين
عن ذواتنا, سندرك كم كنا جاهلين عن سجينتنا كبني آدمين نحن
ذاك المجهول الذي يتربص بنا

بزغ الفجر من جديد دون جديد, اليوم مرتب دون ترتيب ضمني, الفتيات يستعجلن مائدة الفطور ليذهبن إلى أودية قريبة من الحي, ليغسلن ملابس أسرهن ويمالأن أوانيهن مياه شرب نظيفة ثم يتفرغن للمطاردة واللعب, يستحممن ينتفن عاناتهن ويعبثن بصدورهن ذات النهود الوردية الصغيرة كزهور فردوسية في طور النمو, يغرن فيما بعد من اللائي سبقوهن عمراً جراء أئدائهن الكبيرة الممشوقة التي ساعدهن البعض في مرحلة ما من مراحل النمو, الشباب إلى المدن القريبة في محاولات بائسة وغير رجولية لكسب العيش, يعودون فيما بعد لتدمير ما اكتسبوه في الخمر والبغايا أو العاهرات بمعنى خالي من التعفف, ثم يرحلون ليعيدون الكرّة مرة أخرى وهكذا دواليك, كبار السن أيضاً لا يختلفون عن أبنائهم

كثيراً، نسوة الحي المتزوجات هن من يقطرن الخمر أو العرقي ومن يمارسن الدعارة في بيوتهن أو بيت مستورة المعروف عند السكان، هن من يساعدن الفتيات ويمهدن لهن الطريق لممارسة الدعارة .

ليس هناك شخصاً مثالياً أو نقياً في مدن دمرتها الحروب لتُظهرها بأبشع صورها، الرقص على أنقاض الماضي الأليم ودوي المدافع بمثابة موسيقي ركيكة او لوحة فنية يتجسد فيها الحزن بأقبح صورة خلقتها الآلهة، حيث الحياة لا تتوافق مع معايير المنطق الحيادي بتاتاً، هي لحظة مستقطعة من لحظات كثيرة .

يونس ينبذ فكرة الموت في براح كهذا، حيث أنه لم يفعل شيئاً يستحق على إثره كسب حياة أخرى أو شيئاً يكفي لتخليد نفسه هنا في ارض الله الشاسعة إلى حين، قرر أن يصنع من فشله نجاحاً يقنعه على الأقل، أن يرسم لوحة يستحقها، سحق فكرة أن يظل هكذا منتظراً حظه الذي لا يؤمن به، حظ رمى به هنا في لجة الأرض المطوية عنده والممدّدة عند أقوام ما لا يعرفون الله كما يعتقد، حظ هارب من بطن ذبابة أو بعوضة خرجت للتو من أنف نمرود ودخلت في أنف حظه، ارتشف جرعة من السم الذي أرسلته هبة بت الشيخ مع احد أطفال الأرض، جرعة كافية لمساومة شخصاً ما بداخلة ليعقد هدنة، هدنة لا تشبه الهدن المنتهكة لنبي ما في ماضي قديم، هدنة مع شخصاً ما يسكن فيه اسماء مجازاً فلسطين.



صدي الفاجعة

ثمة قسوة تنسجها الاقدار في الخفاء، ثمة احزان تأخذ هيئة بشر، تفاصيل، احداث وافكار ايضاً ، تجاوز عمره الخمسين وهو يعمل حمالاً للبضائع ، حمالاً لكل ما يفوق قدرة الإنسان الطبيعي ، حمالاً فخوراً بعمله ، لدرجة إمتلاكه إسم سوقي ، كان يدعوه الجميع بـ "شبال الثقيلة" ومع مرور الوقت بدأ جسده بالترهل بدأت الآلام تلازم مفاصله التي عانت كثيراً . إرتمي علي فراشه ، سمح لعيناه بأن تُدمع، لعن شيخوخته لعن كل ما مضى وكل ما سيأتي ، رأى قوته وهي تنفذ ، إعياء شديد يأكل جسده ، أصيب بمرض برجوازي عرف في وقت متأخر أنه سرطان ، إستجمع ما تبقى من يقين ليُشعر زوجته أم حرير واطفاله الخمس بالطمأنينة وليمسح الحزن من على وجهها المشع دائماً كطفلاً ينام بالقرب من حزاء العيد، هو يعلم بأن الوقت يمضي لكنه يرغب في أن يمضي سريعاً خوفاً على حفنة نقود خبأها في جيب أم حرير ، كان يقول لاهتاً

- ما بودر القريشات واموت، انا ميت ميت ، خلي بالك من الوليدات يا أم حرير، الله يقدرك عليهم وسامحيني

كانت تبكي، تبكي لفراق متوقع، تبكي وهي تتخيل شكل الحياة دونه ودون راعي لفلذات كبدها ، لم يدعها تحظي بوداع يليق بهما كزوجين او ربما آن الاوان للقاء الرب ، ذهب حاملاً معه حُلم مستقبل مُشرق لاطفاله ، ذهب دون أن يمسح على رؤسهم ككل يوم ودون أن يعبث بخصل أم حرير ، رفضت أن تبكي ، رفضت كل اشكال اليأس والحزن او ربما علمت بأن المرحلة تحتاج الصلابة والقوة ، تأملت صغارها ، الشارع، فكرة التشرذم، التسول ، لعنت كل شيء .

قررت ان تعمل لكن كالمعتاد ليس هناك مجالاً للفقراء في سوق لا يرحم النساء او يحترمهن , وحدها نظرات الشهوة هي من تسيطر على الشارع, الكل في إنتظار الفرائس حتي رجال الدين والمثقفون والباعة بمختلف مسمياتهم, عملت بائعة شاي في إحدي الارصفة الباردة الارصفة التي تعج بالوحوش المأنسنة الارصفة المليئة بمستغلي الحاجة , مجتمع جائر في تصنيفه وبالأدق تلك الأعين التي تفرز نظرات الشهوة , مجتمع جعل جملة بائعة شاي مرادفاً لكلمة عاهرة, لكن الظروف لم تترك لها فرصة اخري , لم تترك مجال اخر للعبور دون أن يُخدش حيائها او يُهان شرفها المُصان, لم تسلم من الألسن التي تلعق وتُغازل والأعين التي تطارد مؤخرتها, قررت أن تتخلي عن العمل أكثر من مرة لكن تعود وتسال نفسها ما البديل ؟

أناس لم يجمعهم معها سوي كوب قهوة يعبثون بأغلي ما يملكه ابن آدم!

توسدت بعض الهموم وهي ترسم غد جميل ككل أم, ترسم ببقايا القهوة أباً لا يموت وأملاً تتشبث به, تنسج بخيوط ثوبها الممزق جلباباً للصبر تخبأ فيه جنون الرغبة وعنفوان الشباب, فكرة الهروب لا تبدو منطقية خصوصاً الان, الهروب من القدر كمن يهرب من ظله كمن يتسابق مع الموت مبتغياً النجاه .

والناجون الحقيقيون هم الموتى! الناجون هم من وجدوا الرب حيث ذهبوا

جاء الصباح موقظاً في قلب أم حريز رحل عدة, رحل لا تدري هل ستعود منها لتعانق الصبية أم لا, تمنت لو أن الموت يترك اكثر من خيار لتكون هي بديلاً, وضعت إباريق الماء على الجمر الشامت وأخذت تترقب الطريق أخذت تترقب كل شيء حتى تأوهات الارض وهي تستقبل خطاوي المارة حتى الندوب المسننة علي وجوه المتسولين واطفالهم, تطفو البشاشة علي تعاير الألم بداخلهم وهم يصرخون غير مباليين بالمساء او الغد , وتعود مرة اخري على صوت وقور يطلب كوب شاي خالي من السكر, كوب شاي معبق بالمرارة , تأملت وجهه وهي تضع الكوب مع الماء الموضوع مسبقاً,

رجل بلحية بيضاء مشذبة توحى تجاعيده على أنه ستيني يفوح من جسده عطر نسائي أطلقت عليه التقاليد مسبقاً ذلك، تحرك بداخلها إحساس الفقد، إحساس الحاجة، شيء ما يسيل من بين فخذها، إحمر وجهها وهي تعود بذاكرتها الى الورا، تزكرت شيال الثقيلة تزكرت صغارها، عادت الى مقعدها الخشبي وهي تحاول قمع شهوتها الجامحة، شبح الخطيئة يلوح في الأفق إستعادت من شيطان الجسد، قرأت اكثر من آية متنقلة بين السور بطريقة عشوائية نجحت في حسم ذاك الصراع وصراعات اخري ممتدة .

أم حريز أنثى قوية للغاية، أنثى هزمت كل نداءاتها حتي تلك المتعلقة بحاجتها المادية، هزمت شخص ما بداخلها اراد أن ينحرف اراد أن يستسلم للظروف والضغطات ، ثمة إنتفاضة تفتعلها الرغبة، ثمة شعور سيء ينتابك وانت تقاوم، هي مرحلة حقيقية لمعرفة الايمان الحقيقي ومعرفة الرب، الرب الذي في داخلك ، العصامية تري صغارها وهم يكبرون تراهم وهم يتجاوزون مراحل خطرة حسب تعبيرها وحسب واقع الاطفال الفقراء في مدن الفواجع، لم تلاحظ انها كبرت أيضاً لم تلاحظ في زحمة الحياة انها تحولت من ام حريز زوجة الرجل العصامي الي ام حريز راعية اليتامي بشكلها الفوضوي، امرأة قتلت أنوثتها او ربما الزمان هو من فعل

سألت نفسها بعد أن لمحت المرأة صدفة لا اكثر

- من هذه؟ من التي سرقت ملامحي او بالأحري ملامح من التي سرقتها؟

تتوه الاسئلة في الفراغ دون صدي يعيد إليها اسئلتها على الأقل لتأكد لها بأن الامر يخصها وحدها، ففي وقت ما حتي الطبيعة والسماء سيتبران منك، سيتحولان الى أليات رقابة فقط

- أه، كم كان الامر قاسياً

عليك أن تأخذ زاوية جيدة لتري هذه الارض, لتري بشاعتها , لتراها عارية تماماً حتى من اخلاقها, سترمق تلك الاسواق المليئة بالنفاق والكذب الموشح بالقسم, ستجد تجار الدين اصحاب اللحى متخذين اماكن تعج بالمؤمنين المزيفين يتنافسون فيما بعد على إقتناء التمام, تجار الرقيق المقنن والبغايا يتراقصن بأردافهن في محاولات يائسة ولكن دائماً ما يفلحن في إيجاد فريسة سهلة, هناك في زاوية تزدهم بالمقاهي يجلس العاطلون عن العمل بثياب جميلة يشرعون في تناول الشيشة بشراهة وهم يرتبون لجلسة خمر مع فاشلين آخرين من احياء مجاورة, مجموعات صغيرة تدعي بهتاناً انها صفوة مجتمعاتها, خريجي الجامعات يأخذوا حيزاً في المشهد, أئمة المساجد يلقون خطاباتهم الفضفاضة متناسين واقعهم المُرزي, يأخذون من الدين ما يتماشى مع أيديولوجيات الأنظمة الفاشية, رجال الشرطة يمررون الرشاوي تحت المناضد وهم يرتدون الزي المدني ليس هناك من هو بريء, الكل مذنب والكل مُدان, جميعهم مخطئون وأم حريير تكتفي بملاً الاكواب قهوة تارة وشاي تارة اخري, واحايين أخري يطلب الرواد اكواب فارغة لا تدري لماذا, هن هكذا يلبن طلبات الزبائن بكل أريحية ودون أدني إستفسار خوفاً من تدني مستوي دخلهن, خوفاً من أن يعودوا بأيادي فارغة الى بيوتهن, يطالبهن الاطفال فيما بعد بوجبة نظيفة وقطع حلوي تقليدية لا اكثر, بعضهن يمارسن الزنا والدعارة بل يتفرغن لذلك إما مقابل أجر او لإشباع رغبتهن ،

ها هي أم حريير تلعن السوق والفقر ايضاً, تلعن فكرة المكوث فيه لمدة اطول من الذي قضته, فترة مأساوية مليئة بالتحرش والمغازلات التي لا تقل ألماً عنها, لبرهة خيل لها بأنها تضاجع لفظياً كل سكان الارض ، لم تستطيع التحمل او ربما إكتفت ، صرخت بعد أن حطمت اوانيتها

- سوقكم دة وحات الله بخش النار ، سوق السجم , سوقاً بلا بركة

قصدت منزلها وهي تبكي, إحتضنت ابناءها, تقاسموا معها البكاء, إفترشوا
مأساتهم وفي جوفهم اكثر من حلم, رأت زوجها في منامها, رآته يبكي بحرقه
وهو يغطي

وجهه بكفيه, يسترق النظر من فتحات اصابعه خجلاً او ربما إعتزاراً عميقاً
لأم حرير والاطفال, إعتزار عن شيء لم يكن بيده

هو بعد أن هدأ قليلاً _ أشتقاكم كثيراً, متي سنلتقي ؟

أتمني أن تأتوا سريعاً

هي مبتسمه ومعانقة الفراغ _ سنأتي لا محالة, مسألة وقت لا أكثر.



أنا لستُ بقره

هذا الصباح شهياً عبقاً ، بنسيمه اللذيذ المفعم بالحياه ورزاز المطر النافذ
عبر كل شيء مُشرع ، صدرأً كان أم نافذة ، قلباً أو ذاكرة ، صباح يُحرضنا
على التسكع خارج ذواتنا والتحرر من عبثية الزمكان ، والمُضيّ قدماً في
بحثنا اللانهائي عنأ الذي نرغب ، الذي نعشق أن نكونه ونعايشه ،
العصفور ليس تواقاً لرؤية القفص الذي يُصنع على مهل ، ليس تواقاً لهيئته
النهائية ،

حرأً هو ،

حرأً بطريقة ما _ مؤقتة كانت أم دائمة

فصوته الذي ترجمه الصياد تمرداً ، ترجمه طفلاً ما (أُحجيه)

وترجمته فتاة تنتظر حبيبها بالقرب من البحيرة أغنيةً لذيذة

حرأً هو

يهتف وحده ، يصرخ وحده ، ضد من يعرفه ، يُغني وحده لمن يعرفه

حرأً هو

وفي السر حرضته الطبيعة للتخليق ، حرضته للسفر كإبراهيم أو ربما أكثر
شراهة منه ، فالحكومات لا تحكم أرضاً وإنس بل تحكم العصافير أيضاً ،
كم عصفور قُتل وإحترق ، السماء التي تحلق العصافير فيه يعتليه
الأنتنوف أيضاً ، العصافير ضحايا وشهود ومفقودين كالبشر تماماً
حزم إبراهيم حقائبه ، ذكرياته وجنونه ، حزم قصاصات أوراقه وذاكره
السجن وحتى ندوب الكلبشات المسننه على معصميه النجيلين ، خرج
لتوه من المعتقل ولا يدري أين يذهب لكنه يمضي فقط ليُجرب رغبته في

المشي ويتعرف على الحرية من منظور الضحية ، هو حر الآن كجميع من في الشارع ، تلك الحرية المشروطة ، فما دُمت صامتاً أنت في مأمن يمشي وهو يضحك ساخراً ، تئن مفاصل جسده ، الشوارع تعج بالمشاه والصوص والمتسولين تعج برجال الأمن والشرطة ومليشيات متعددة ، وهناك في ركن قصي يتحرك البشر بحرية في الأماكن المخصصة لهم ، يضحك ويمشي بين الزحام مستطرداً فكرة أن يعود إلى السجن عبر بوابة النضال ذاتها مرة أخرى ، ضجيج السوق ينخر رأسه ، كمساري يصيح على مقربة:

- حجر قدو _ حجر قدو ، نفر نفر

واخر هناك يتسابق مع الوقت بصوته الأحرش:

- كُتم ، كُتم مارك ، مارك

دون شعور دخل إبراهيم في تلك الموسيقى الركيكة ، دفع صوته مشاركاً مستمتعاً بعبثية الحياه ، يضحك ساخراً ثم يردد:

- نيفاشا ، نيفاشا بالكبري _ نيفاشا بالردمية _ نيفاشا بالإتفاقية ، نيفاشا نفر

دون أن يقف يصيح ويصرخ ، يلوح بحقيبته بين هتاف وضحك وبكاء ، لبرهة إتهمه كل سكان الفاشر بالجنون بل اقساموا على ذلك وآخر أوجد سبباً يخصه لجنونه ، إذ قال للجميع هذه نهاية من يتعاطى الترامادول أو بصوة سوقية شعبية (التيمو) ، هو متهم وجاني عند الحكومة لأنه يساري متطرف وعند رواد سوق المواشي بالمجنون متعاطي الترامادول ، إبراهيم يصيح متغاضياً عن كل من هم داخل السوق إلى أن وصل الترحيلات ، ترحيلات الخرطوم أو كما يسميها _ المكان الذي لا تحتاج فيه إلى مسرحة أو الأمكنة التي لا تنطفئ فيها الإنارة _ سأل عن تذكرة ، عن مقعد متاخم لنافذة الباص بالأخص ، لكن صاحب المكتب أخبره أن التذاكر نفذت والباصات السفرية كلها محجوزة لكن إن أراد يمكنه السفر بعد ثلاثة أيام

شعر باليأس وعقد حاجبيه متسائلاً:

- لكن كيف ، عليّ أن أذهب غداً ، لدي أمر هام وعليك أن تجد حلاً

ركل صاحب المكتب شيئاً ما ليُبدي تدمره ثم أضاف :

- مافي أيّ طريقة ، اتصرف أمشي السوق الأسود المهم غور إبراهيم
بودية مصطنعة _ ولا شماعة ؟

عرف جواب الرجل من تعابير وجهه لأن اللصوص عندما يغضبون تهتز شواربهم ، لعن كل شيء وهو يعود أدراجه باحثاً عن مكان آخر ولكن جميعهم يقولون الأمر نفسه ، السوق الأسود ، بطرق مختلفة بعضهم بود وبعضهم بتذمر ، التجار هكذا أبشع خلق الله ومتخمين بدماء الفقراء ذهب نحو أماكن لا يعرفها ، تأكد من محفظته وحقيبته ، رائحة اللحوم المشوية تكتنز المكان وتُزاحم أنفه ، تستفزه وتستثيره وتحرضه ، جعلته في موضع صعب بين أن يرضخ لنداءات جسده أو أن يستمر ، ربما لأن محفظته الواسعة الفارغة أحالت دون ذلك ، رمى كل شيء خلف ظهره وإبتعد لكي لا يفقد توازنه إيذاء أمعائه الغليظ وهو يهدى:

- هل هناك رغبة للأكل الآن ، قال سوق اسود قال ، شكلو الجشع
مرض معدي ، غنى يا عصفور وارحل

ويضحك مستهتراً ثم يمضي

إبراهيم أو كما يصفه رفقاء نضاله في المدرسة السياسية ، الذبون الدائم لأنه قل ما ينجو من أي محاولة إعتقال حتى وإن كان المعتقلين رجلاً من أصل أمه فأحدهما إبراهيم وعليهم أن يبحثوا عن هوية الثاني ، كان يقول لهم بكل فخر لحظة خروجه من تغييب مماثل أنه رجلاً محظوظ ، الزنازين منازل للأشباح والمتعدين ثم يضحك وهو يصرخ:

- أنا شبح أحاصر اشباحاً ، لكنهم يفوقني عدداً وعتاداً وبطشاً

يفوقونني جهلاً ، سيقتلونني لا محالة في يوم ما ، وعليهم أن يفعلوا ذلك قبل فوات الأوان ، وكلما قتلوا رجلاً يرغب في أن يكون حراً أنبتت الأرض إثنان ، كلما قتلوا رجلاً يرغب في أن يتحرك خارج إرادة الطغاه أنجبت حواء ألفاً.

شاحنات سوق المواشي متكأه على شمال السوق ، يتسارع تجار البهائم على شحنها لتعود إلى الخرطوم ، الرعاة في أبهى صورهم معتمرين عمامات بيضاء ونعل محلي جميل مدثرين بسديرياتهم وعصيهم الملونة ، شخص ما يُحصي الأبقار وهي تعبر بعملية إحصائية دقيقة حتى وصل إلى الرقم ستة وخمسين ، تعجب إبراهيم فكيف لبقرة أن تجد موطاً قدم داخل ناقلة وتقصد الخرطوم وأنا لا ، جلس يترقب الأمر حتى أنهى الرجل عملية الشحن ثم قفز داخل الناقلة وأخذ يضحك ساخراً ثم أردف:

- سبعة وخمسين ، قال سوق اسود قال

أمره الرجل بأن يترجل من الناقلة وهو يشير بعصاه مهدداً ، لكن إبراهيم تجاهل الأمر وصرخ:

- انا لست بقره ، لكنني كذلك إذا كان في الأمر خرطوم نؤخذ إليه.

بعد شد وجذب داما طويلاً ، كان الراعي يشك في أن هذا الوجه مألوفاً ، هذا الرجل إلتقيته في مكان ما ، لكن أين ؟

نزع عمامته وأخذ يفكر ، ثم صرخ :

- انت إبراهيم قرقاش

إبراهيم بعد أن إعتلت تفاصيل وجهه الدهشة :

- نعم انا ابراهيم لكن انت منو ؟

- انا ود النقعة يا صحبي ما عرفتني

- يا سلام ياخ كيف اخبارك ، وعامل كده في نفسك ليه

- ده قصة طويلة و ما مهمة ، المهم انا ماشي الخرطوم عندي
امتحانات بعد اسبوعين

نفضا ذاكرتيهما ، تعرفا على بعضهما وإستدعا ما يمكن إستدعاءه من ذاكرة
المرحلة الابتدائية اللذيذة ، ود النقعة المشاكس يضحك بنهم وهو يحدق
في وجه صديقه الذي إختلف كثيراً ، حيث أعطى مطلق الحرية لنمو
شعره ، وأصبح حديثه ركيكاً غير متناسق ومكتظ بالمصطلحات ، تحركت
الناقلة وغابت في غياهب الطريق الإسفلتي الطويل وإبراهيم على متنها
وقد أحال نفسه إلى بقرة من أجل الذهاب إلى الخرطوم ، تناسى تلك
المفارقة متكأ على كومة علف ، غالبه النعاس فنام ملء رقهه كعصفور
تعب ، العصافير آية من آيات الرب وتوازن للكوكبنا الضخم ، ربما هي فقط
ما تجعل الأرض صالحة للحياه في وطن يعتبر التحليق تمرداً
الخرطوم جنة الأوهام كما قال الرفيق طه البدري ، عليك أن تدخلها خلسة
وتخرج منها خلسة أيضاً ، لأن منظومة الحياة فيها رافضة للجهر ومنصاعة
للتكتم ، ربما ستتغير وربما لا فالأمر معقد بدقة من جهة ما ، إستيقظ
إبراهيم فمزمار الناقلة كان كفيلاً بأن يوقظه ، ها هو في قبضة المدينة التي
لا يستمتع بالتسكع في ازقتها والإنخراط في تفاصيلها ، ها هو متاح لشقائها
وعبثيتها المرهقتين ، تحسس محفظته وعنقه فكل شيء وارد في هذه
الأرض إن كنت راكباً أو ماشياً إن كنت مع حفنة بقر أو مع بضعة
أشخاص ، فجميعنا متهمين وسراق وفساق ، تحسس بأنفه الإستقرائي نوع
الرياح مستكشفاً حالة المدينة ، كعادته يظن أنه يشم رائحة الفتنة من
منأى والجو الهاديء مصيدة لا تُخفي شيئاً جميلاً ، إيماناً منه بأن أي أمر لا
يحدث صدفة. ضحك بإستهزاء متناهي ثم ترجل مودعاً ود النقعة وشاكراً
لخدمته ، اخذ يزرع شارع السوق الشعبي ينددن تارة ويسخر من كل الذي
حوله تارة أخرى ، يشتم ويلعن ويضحك ويمضي ، لا يستحي من نظرات
المارة ولا يستنكر إنتباههم اللاواعي لسلوكه الجنوني كما يزعم ، يمضي
بسرعة ورشاقة نحو ما يفترض أن يكون مصنع أديب للبلاستيك ، مصنع

يتبع للرأس مالية القبطية ذو عمالة إثنية ضيقة لا يتماشى مع مبدأه أبداً لكن لا مناص فلا بُد للشخص أن يقدم بعض التنازلات خصوصاً الآن ، حاجته للمصروف أكثر إلحاحاً من مبدأه وعندما تحتاج لها يسد رمقك عليك أن تتجنب المنطق والمبدأ ، هو أمر منافي لكنه الواقع ، ثم يحدث نفسه هاذياً:

- قال سوق أسود قال ، انا ما انا ، وهم ما هم ، لكن تقول شنو الوحش الجواي طغى على ابراهيم قرقاش الإنسان

ثم يضحك مستهتراً ويمضي

إتصل بصديقه العزيز الذي يعمل بذات المصنع ربما لرغبته في الوساطة لصلة قرابة باهتة بينه وبين رئيس العمال بل جميع العمال تربطهم صلة قرابة ما مع رئيس العمال ، صمت صديقه لبرهة ثم أردف متهرباً:

- والله بحاول ياخ ، الأيام دي مافي شغل ، كده برجع ليك بتلفون بعد شوية

من خلال نبرة صوته عرف إبراهيم أن صديقه هياً له الرفض بتمهيد يألفه ، هي إشارة منه لعدم وجود فرصة لكن لا بأس بالانتظار ، هم هكذا دائماً لا يتيحون الفرص لغيرهم لأن الأمر مقرون بقضايا عديدة لا يسعني الخوض في تفاصيلها ، ربما سيشملني إستثناء ما ، سأنتظر

في معترك تساؤلاته تلك ، سمع شابان يتحدثان بالقرب منه عن مصنع الزيت ، دقق وتلصص حتى علم أن رفيق لهما لم يأتي إلى العمل لأنه مريض وعليهما زيارته ، هب من مكانه وسلم عليهما بوُد خباً خلفه حاجته الملحّة ، قال لهما لقد سمعتكما تتحدثان عن صديق لكما غاب عن العمل بسبب المرض ، أحدهما بإستغراب :

- نعم

- ممكن أسد محلو لغاية ما يتحسن

- لماذا؟
- لأنني احتاج الى عمل ، لفترة اسبوعين فقط ، اخوكم طالب في جامعة النيلين
- تبادل الشبان نظرات الشفقة ثم أضاف أحدهم بعد أن ربت على كتف ابراهيم:
- ما مشكلة ، لكن اسبوعين بس تمام
- ما بزيدها ولا يوم
- تمام ، مصطفى كان شغال محل تعبئة الألباس ووردتو الساعة ستة ، يعني بعد نص ساعة.

شكرهما ورحل إلى حيث المصنع ، وبعين ثابتة تفحص هيئات العمال ، قرأ تعابير وجوههم البائسة وتفاصيلها ، منهم من لفظتهم الحياة إلى هنا بقسوة ومقت ومنهم من هم طلاب في جامعات مختلفة وكليات شتى ومنهم أيضاً من يُعيلون أسرهم الفقيرة العفيفة ، هنا كلاً بمصيبته ومبتغاه ، كلاً له جرحه وصديده وأينيه وبكاهه ، بصمت مُدقع يمارسون طقوس حزنهم المستفيض ويحولونه إلى ضحك هستيري متذبذب يفضحهم عند نهايته الدامعة ، دخل إبراهيم هناك وتآلف وتودد وعاشر أصدقاءه الجدد الذي أسماهم فيما بعد " البرمائيين " ، يعيشون هكذا إلى ما شاء الله كعصافير لا ترتدي اجنحتها ، أو مكسوريّ الجناح يقفزون (در اللوم) قفزة لا تعتبر محاولة للطيران لكن عبثاً يقفزون أحراراً إستعبدتهم الأمكنة والجوع

أنقياء لوثهم البؤس

انقياء لنعتهم الآلهة

بعد اسبوعين وبالأدق عندما أنهى ورديته الأخيرة في مصنع الزيت ، حزم حقيبته مرة أخرى وتحسس محفظته كالعادة مغادراً دون أن يُخبر أصدقاءه

البرمائيين ، هو هكذا يخرج خلصة ويدخل خلصة ، حيث لا يستطيع أحد العثور إليه عدا رجال الأمن غادر مدندناً:

- من منفى لمنفى يا يمه

من منفى لقبر وسيع يا يمه

قال سوق اسود قال

وبين دندناته أخذ يفكر ، إلى أين يا قرقاش ، إلى أين ؟ ثم يضحك بإستهزاء ويمضي .

تمدد على سرير داخل بيت العزابة في أقصى جنوب الحزام ، أشعل لفافة تبغ متفحصاً هاتفه المحمول تزامناً مع نزول رساله نصية من زميله كركاب فحواها بأن الإمتحانات تم تأجيلها إلى حين إشعار آخر ، نفث الدخان بتلذذ ثم أردف:

- نيفاشا ، نيفاشا بالكبري _ نيفاشا بالردمية _ نيفاشا بالإتفاقية ،
نيفاشا نفر

نشوة الهلاك

في مرحلة ما سينفذ حظك , ستشتهي أن تعتق صرخة تتقيأ فيها كل ما يعتصرك من ألم وفشل وحزن , تتمني لو أنك كنت مجنون بما يكفي للتخليق في ذاك الفضاء الذي رسمته عند طفولتك وترعرع معك شيئاً فشيء حلماً أو شك أن يصبح مستحيلاً , تحملق في الأفق البعيد باحثاً عن شيء يخصك عن أملاً قد تجود به السماء أو شعاع ينتشلك من كومة القمامة العالق فيها ، وما أسوء أن تكتشف أنك لم تكن جريئاً بما يكفي لتعانق أشياءك بعيداً عن الأرض وتكتفي بحياسة مبررات لم تُقنع حتى ذاك الطفل الذي تشكل على هيئة ضمير يتحرك داخلك , تبدو مثير للشفقة وأنت تنتظر لحظات مدهشة دون أن تؤمن أسباب انتظارها فالأحلام المستحيلة تحتاج شخصاً مذهل وإلا يجب أن تسأل نفسك :

- لماذا هو بالذات ؟

الوقت يمضي دون أن يحرك باولو ساكناً , هو هنا في زحمة الذكريات يبحث عن شيء عرف فيما بعد أنه هو , هو الذي في المهد وعلي أمواج الصبا وعجلة الزمن حاملاً معه حفنة أحلام خبأها داخل حقيبته المدرسية ووصايا والدته ميري وبالأدق تلك التي كانت ترددها عقب كل قبلة وداع (لا تستسلم يا بني) وكأنها تنبأت بحوجته لوصايا مشابهة في مستقبل قد لا تكون فيه , وكأنها سمعت وقع أقدام الخييات وهي تحاصر طفلها آجلاً , استعاذ باولو من شيطان الورا الذي يوسوس في صدر الذاكرة وارتمى على فراشه عسي أن ترضخ ملائكة الكون لرغبته في النوم ، أتى الفجر ، خرجت أصناف الشمس من أفاقها ، حتى تلك التي لا ترغب في إضاءة المنافي الموحشة ، حتى تلك التي لا تشتهي السطوع الأرض تدور غير آبهة بمن سيسقط ، علماء الفلك مشغولون باستنباط نظرية تمنع انشقاق

القمر ، منهمكون حد الموت لإيجاد طريقة ما تخلص باولو والبشرية أو بمعنى أدق ما تبقى منهما ، نواقيس الهلاك الصدئة المركونة في أقصى الجبال المسكونة أوشكت أن تُطرق ، السحرة و المبشرين والمنجمين يتنبئون بنذير شؤم يتربص بأبناء آدم ، حتى عزازيل إله الشياطين صنع مركباً صغيراً يقيه من غضب الطبيعة ومنطق الطوفان ، الطبيعة التي لا تجيد سوى العنف زامون وزير الملك يأمر الخيال بطرق الطبول يأمره بان يخبر سكان المدينة المباركة عن اختلال في توازن الكوكب عن حرب لا تصد سوى بالتعويذات والابتهالات.

شمشوم الكاهن ينصح الخدم برمي الجواري في الماء خوفاً من لعنة الدنس وغسل الاميرات بماء الورد المسبعة في بحيرة الواق الواق التي تنبع من جزيرة بارشى ، القساوسة وأئمة المساجد يلعنون الحرب ويصرخون في مواقيت الصلاة ويستنجدون برباً عرفوا فيما بعد انه رب كليهما .

هناك في كهفه الذي لا يطل علي شيء سوى أمكنة لم يشتهي أن يراها ، أمكنة لم تتحلي بالأنوثة والرحيق ممدداً علي أملاً قديم في قلب المنافي والمدن ملتحفاً بعض القصائد والورق وثوب والدته ، أول ثوباً ارتدته عندما أمطرت السماء لعنات الحروب والفتنة على الأرض ، أخر قطعة قطنية توشحت به عند الغروب والآن ها هو قابعاً تحت رأسه ملطخاً بالدماء كثوب يوسف ، ها هو بجانبه تماماً يلامس الوجدان وكأنه كتفيها .

أيقظه الهتاف أيقظه كي يعود إلى الوطن ، حملى في الفراغ جيداً تنصت على ذلك الصخب المدوي على ذلك الضجيج المتزن _ تشابهت الأصوات ، أصوات السجناء خلف القضبان أصوات الشرفاء في عمق الزنازين ، أصوات الفقراء ، العمال ، المهنيين ، أصحاب المتاجر الصغيرة والكبيرة حتى صوت البندقية كان واضحاً بل أضخم الأصوات من حين إلي آخر ، أيقن أن أصدقاءه أصدروا ضجيجاً أن البراكين الهادئة تمردت على ذلك السكون أن الشيطان الآن يشعر بالدوار ، أيقن أن الوطن خرج إلى الشارع

، خرج كما ينبغي ، الأرض مكتظة بالجيوش والثوار والمرتزة مكتظة بكل الأضداد حتى تلك المخلوقة في معمل أيدولوجي يملكه عزازيل إله الشياطين ، سميت فيما بعد الدعم السريع ، دعم ساهمت الطبيعة العنيفة في إنتاجه دعم ساعدته الظروف والسماء لأن يكون هناك في قمة الهرم بكل خُبث ، وباولو جالس هناك على هامش الوطن يرمق ساحة الفداء يري الموت مرتدياً بدلته العسكرية ويتربص بالوطن ، يري الشهداء وهم يعانقون أفواه البنادق المأجورة ويهتفون سلمية ، سلمية وما أسوء من أن يخرج زامون وزير الملك مساءً خلف عدسة ضباية يحمل أنباء تُخجل حتى الهدهد من حملها يُدلي بها بكل صفاقة أمام الملائمات مع انشغال شمشوم الكاهن مع بعض الشيوخ بنسج ديناً جديداً يُبيح سفك الدماء ويقدم الوطن قرباناً لأصحاب الياقات البيضاء وباولو يتذكر كل شيء ، يتذكر تلك الكتائب المسلحة وهي تحاصر قرية النائبة خلف غابات السنط والمهوقني ، تذكر أول ليلة له في مدينة استنشق فيها أنفاس الوصول وذاك الصباح المبتور من صباحات عديدة عندما جلس الأطفال على شاطئ النيل آخذين الشرق قبلة وهم يجمعون الرمل ليرسموا وطناً جميلاً ، ليرسموا ترنق تاورا أخري من الرماد أو بالأدق العدم إلا هو كان يحاول أن يصنع والدته ميري ، أن يصنع أنثي تخصه وحده وفي كل مرة يكتشف أنه يصنع بندقية يتفاجأ بأنه يصنع حرباً جديداً مضاداً

تأكد أخيراً بأن هناك قاتل ما يسكن داخله ، قاتل أو ربما ثائر لجأ إلى الكفاح المسلح ووالدته ميري تلوح له من مكان ما في الجنة وهي ترتدي ذي ابيض ، حدثته بعد أن صفقت بجناحيها قائلة:

- إياك يا بني ، إياك أن تقتل أحداً إلا على حق

قاطعها متسائلاً :

- أليس الوطن حق يا أمي ؟

- أجل

بدأ شبح الموت يلعب في رأسه , بدت الحياة قصيرة جداً في نظره , الأشجار أخذت تتمايل وكأنها توماً لباولو , ربما ثناء على ما يدور في عقله وربما الرياح لم تترك لها مجالاً للرفض , فكرة قتل احدهم من اجل أيولوجية معينة لم تقنعه أو لم تنضج بعد لتوقف مساومات الدواخل تأوه ثم أضاف:

- ما أبشع أن تكون إنسان في مجتمع الغاب وأمر صعب جداً أن تتحول إلى قاتل أيضاً , ليس هناك أمراً أكثر بشاعة عند الكبر من تيقنك بأن الأشياء ما عادت تُحل بالبكاء , بأن هناك أشياء مخيفة أكثر من مواء القطط وشكل المجانين وهم يجوبون الشوارع وأن جارنا الشرطي يملك أكثر من ذي مدني والغريب أن البندقية لا تصدر الصوت الذي كنا نحاكه , ها هي أشباح البنادق ذاتها تقتحم منازلنا المنصوبة في مدينة لم تشاء السماء أن يكون لها اسماً جميلاً , مدينة انزلقت هكذا من بين السجلات وأصبحنا نحن فقط دليلاً على وجودها , مدينة قسمتها الجاهلية إلى أن تلاشت تماماً ملامح الحزن أبشع من أنين الكلمة وأبلغ من لغات الصم , بل اصدق من أيّ تعبير يقفز إلى ذهنك , لبرهة أراد باولو أن يكون شاعر أن يترك تلك البندقية أو يستبدلها بقلم , لكن تغيير هذا العالم بالمداد ومشاركة الورق في حرباً جاهلي جديد لا يبدو منطقياً بالنسبة له أو ربما الرغبة في الانتقام جعلت كل الأفكار الإصلاحية مجردة أو هام

الخامسة مساءً ...

ترتدي السماء ثوباً جديداً يشبه ثوب ميري , ثوباً حاكته تفاصيل المكان وتقاليد الأسلاف , تبدو السماء جميلة في ذاك الثوب أو ربما يكمن الجمال في ملامح ميري الذي اتخذته , خطوات العودة جلية على شوارع المدينة

المباركة وتنهيدات الوصول تملأ آفاقها والشوارع تحاول أن تهرب من وطأة الأقدام تماماً كباولو المعتوه ، المنجمون ينبذون هذا الوقت بالذات وينصحون بتطويق الأطفال بتعويذات صنعوها لكي لا تتلبسهم أرواح الشياطين ، اخرج باولو بندقيته الطينية من حقيبة عمرها خمسة عشر عام تقريباً مروراً ببطء تحسس جرحاً لم يندمل ، تخيل ميري جالسة قبالة وهي تخفي سيقانها من الدموع ، تخيلها تسحب مشط الرصاص وهي تقول :

- الحرب ليس حلاً يا بني ، الحرب ستجعل أكثر من باولو دون ميري ، أكثر من ترنق تاورا محاطة بالرماد والجثث ، الأرض لا تسع لضحايا جدد ، الأرض لا تشتهي دماء شابة تروي ظمأها يا بني .

اصدر باولو صرخة مدوية ، صرخة اختصر فيها كل آلامه ، صرخة اختزل فيها صرخات عديدة فات أو انها _ جلس على الأريكة واضعاً أمامه إناء فارغ وضع عليها بندقيته الطينية ثم سكب عليها بعض المياه لتتحلل ، لكي تصبح مجرة لعبة ما من عمره المطوي ، أشعل لفافة تبغ واخذ يتأمل ماضيه في ذلك الإناء ، يتأمل كراهيته لهذا العالم وهي تأخذ شكل مغاير ، يتأمل ذوبان البندقية رويداً رويداً إلى حين التلاشي

صنع بذاك الطين شيئاً عرف فيما بعد أنه قلم

قال بعد أن حمل قلمه الطيني :

- عندما تحارب جاهلاً لا يكفي أن تحمل قلم فقط ، لكن ميري تكره الدماء وأنا أكره أن تُقتل ميري أخري ، آه، ثمة شيء ما يزعزع السلام الذي بداخلي ، يعبث بالسكون ويختبأ بين ثنايا الفؤاد حافياً ، على شخص ما إقناعي بأن القلم يمكنه الصمود في وجه المدافع والبنادق إذا التقياً وجهاً لوجه ، يمكنه أن يمنع تلك البندقية من قتل ميري أخري في الجوار أو حتى التي هناك في رحم أحدهم ،

يوم في كوبا

هافانا عاصمة النضال وسماء العشق الملتهبة بجينات اكثر من جيفارا , بقايا الثورة متجلية حتي علي الارصفة وإبتسامات المارة ,مبعثرة الي حد كبير يجعلنا نمثل امام تاريخ جميل وحافل وملامح وطن فخم يخفي خلف أريحيته مأساة ومشاعر متناقضة يخفي ظلام دامس إبتلع أكثر من بطل , ومستقبل يشع وفق ميلاد أزمنة وارفة وبراقة منتقاة من إكسير الوعي المتدفق ، نسجت السماوات لقاء مع أنثيات المكان او بالأحري نصبت فخاً ما عندما شاءت الاقدار أن يلتقي فهد بملاك تُدعي نرجس , أنثي أطلت من الشرق تماماً , أنثي ساهمت كيميائية الأرض ومنطق الطبيعة في بلورتها , بعد نظرات لا تبدو هشة علي الأرجح رمت عليه التحية وهي تمرر عيناها علي تقاسيم وجهه الافريقي وملامح ربما صنفتها للشمال الأسمر , رد فهد التحية مستنداً علي إبتسامتها بلغة إنجليزية توشي للمستمع بعض التكلف , مدّ يميناه لمصافحتها وفق تقاليد الارض التي لفظته مخبأ أسئلة فضولية منها :

- ماذا لو كان الامر عناقاً؟ لم تفكر نرجس مرتين في قرار ما إذا كانت ستصافحه أم لا, جلسا علي طاولة بالقرب منهما وسط دهشة تملكته فهد وتساؤلات قفزت الي السطح ، هل الجميع مألوفين في هافانا أم أن للغرباء مكانة خاصة في وجدان كوبا؟ هل هي الرغبة في معرفة المختلف؟

لم تدعه يمضي بعمق حيال مخيلته ليستنبط شيئاً مفيداً, أو ربما الربكة أحالت دون تركيزه , همست في قلب الفراغ قائلة :

- هل إلتقينا من قبل ؟ هناك شيء مألوف يجزبني نحوك ربما شيئاً
إعتيادي او أمراً مماثل

قال بعد أن إستجمع قواه , :

- لا لا أعتقد ذلك – هذة زيارتي الاولي لكوبا وهناك شيء اخر ,
الجمال الذي أبصره الآن لا يمكن أن يُنسى لو أبصرته في السابق

إبتسمت ثم أردفت:

- هل أعتبر هذه مجاملة أم محاولة لنصب فخ ؟

هو بعد حيرة:

- كلاهما ، لكن لا أدري يا سيدتي لماذا يتملكني إحساس أننا من
جغرافيا واحدة , إحساس قوي جداً بأن امرأة نوبية خلف هذا الزي
الكوبي , امرأة حالفها الحظ لكي لا تتلوث ذاكرتها من قبل أمكنة
يُفترض أن تكون فيها

قالت وعلامات الذهول تبدو جلية على وجهها :

- واو يا لك من رجل ذكي , هل انت عراف لتبتدع كل هذة التكهانات
, لتبتدع اكثر من اسطورة في اول لقاء مع شخصية لم تراها من قبل
او ربما من رداءة المدينة المختزلة في ملامحك .

إبتسم ساخراً ثم اضاف:

- هل يعني ذلك أنني محق ؟

- ربما

إتكأت علي الكرسي موقظة في مخيلتها بعض التكهينات, تكهينات تبهر فهد
اوربما لتصدق أن الامر كان صدفة وكل ما تذوقت طعم حديثه كان
التوهان أعمق قاطعها مضيئاً :

- لا تفكري كثيراً , سأذهب الآن وربما نلتقي مجدداً

هي بصوت حاد كمن يشتهي أن لا تبرح الصدف زمانها ومكانها :

- متي وأين ؟

هو بعد أن إستدار :

- الاقدار ستتكفل بذلك

راقبته وهو يمضي الى أن تلاشي تماماً, تركها هكذا في غموض متشبهة بلقاء
محتمل تمت أن يجود به الوقت سريعاً, كما لو أنه أيقظ فيها رغبة الجنون
ورحل, كما لو أنها عشقت جنياً هارب من بحيرة ما في ادغال افريقيا
في الثاني من نوفمبر إستيقظت نرجس لتري كوبا بصباحاً مختلف, حيث
الغيوم تتراشق وتتلبد والنسيم يطرق النوافذ برقة فالورود اول من تشعر
بتقلبات المناخ وتحولاته , لاول مرة تشعر نرجس بالحُب , لاول مرة يدق
الزمان حصون أنوثتها المخبأة , وقفت أمام المرأة لتعيد ترتيب خصلات
شعرها التي بعثرتها الوسائد ولتتذكر ذاك الغريب الذي سرق قلبها عند اول
لقاء , تبتسم تارة وتارة اخري تنكر حبه وتعتبره لقاء عابر لتجمع ما تبقي
من كبرياء ومع مرور الوقت باتت تكره المرأة , المرأة التي تُظهر فهد
إنعكاساً لها المرأة التي تربكها وتُعيد لها مهزومة عند كل نزال , قررت أن
تكون واقعية بعض الشيء فهي الان مغرمة برجلاً غريب تعرف عليها بعمق
ووضوح لكن ما هي الميزة في الغرباء ؟ , ثمة كاريزما مرعبة خلف وقارهم
وكانهم يخفون جزر مرجانية في دواخلهم ليتركوا بصمات هنا وهناك تأجج
فكرة رحيلهم والحنين

ولكن يا تري هل كل الغرباء هكذا؟

لم تمضي كثيراً في نوبة تساؤلاتها , بدأت تبحث عنه في شوارع هافانا
وصدي صوته يتردد علي معظم حواسها , بحثت عنه في كل وجه افريقي
وكل حي قد تطئه ساقان سمران لكن دون جدوي , بحثت مراراً وفي كل
مرة تعود بأكثر من خفين

قالت يائسة :

- لهذا أكره الغرباء

عادت الى منزلها , أعدت قهوتها وأخذت تسترق النظر الى المرأة , أخذت
تراقبها وكأنها تتهمها بإخفاء ذاك الغريب بين حوافها , تذكرت شيء ما ,
إندلقت القهوة , تذكرت سؤاله الاخير , أري أنثي نوبية في زي كوبي _ هل
انت من هناك , يا إلهي ربما هو ايضاً من هناك , باتت مشوشة حد
الهديان , باتت تملأ الآفاق ضجيجاً لا يخضع للتصنيف , سألت نفسها تُري
في أيّ دولة يقطن النساء النوبيات , في أيّ بقعة من هذه الارض اللعينة

صوت ما يخرج من بين حواف المرأة _ إنها جبال النوبة يا نرجس ,
صدي الصوت في الغرفة _ جبال النوبة جبال النوبة جبال النوبة ,
نرجس مستديرة نحو مصدر الصوت صارخة _ اخرج من مرآتي , اخرج من
مرآتي , أخذت تضرب المرأة وهي تصيح اخرج من مرآتي ايها الغريب اخرج
من مرآتي ايها الغريب , الى أن تهشمت المرأة وأصبحت قطع صغيرة
متخذة اشكال فوضوية , حب جنوني تملك نرجس واحاسيس غريبة تجاه
غريب قلب حياتها رأساً على عقب , ثمة رعب مهول في الحب ايضاً ثمة
وجود ظاغ له قبل أن تأمر السماء شبح البحر بأن يشق طريقة على الارض
ليفرض نفسة حدثاً طبيعياً , قبل أن تنضج فكرة الثورة في مخيلة البراكين ,
الحب تماماً كما خلقه الرب ليضاهي الشر الذي في قلب الإنسان , مجهولاً
كعادته لا يملك وصفاً دقيقاً او ليست هناك دقة تصفه وتحدد ماهيته ,

عبارة عن أنصاف تعاريف _ تخاريف واشياء اخري تراودنا كما لا ينبغي , ربما حاجة الإنسان الملحة للهرب الى قلب احدهم او ربما حاجة الطبيعة الى التوازن , أيقنت نرجس وبشكل منطقي أن الوصول الى فارس احلامها امراً مستحيلًا لكن قلبها يرفض المثول ومشاعرها تناشدها بأن معجزة ما ستحدث , معجزة ما ستعيد ذاك الغريب إليها _ طغي شوقها على كبرياتها فحاولت جمع اجزاء المرأة المتشظية عسي أن تلتقي به او لتواسي نفسها بذاك الصوت الوهمي الذي يخرج من حوافها , صوتاً يُبقي آمالها على قيد الحياة.

يا إلهي

مجرة لقاء لم يتم الترتيب له يُحدث فوارق جمّة في حياة احدهم , اصبحت كوبا الجزء المأساوي من الارض في حياة نرجس , اصبحت هافانا جحيم ملتهب يأكل منها شيئاً فشيئاً , دخلت في نوبة بكاء عالية زرفت فيها كل دموعها حتي تلك المتعلقة بأحداث مستقبلية في طيات الغياب معانقة بقايا المرأة التي بدت قاسية للغاية , بدت وكأنها لا تأبه لمشاعرها وكأنها تعاقب نرجس على تهشيمها , خدشتها اكثر من مرة لكن الامر يهون عندما يتعلق بالحب , الحب أشبه بالحرية , كلاهما يحتاجان الى نضال و الى تنازلات , يحتاجان الى أسمي انواع الرغبة وأجلّ تداعيات الثورة , كلاهما لا يلوحان في الأفق دون ضحايا لا يرتقيان الى القداسة واليقين إلا بتقديم القرابين , نرجس تداوم عند طبيب نفسي الآن , تخضع الى جلسات تراها غريبة , لم تعتقد أن هناك شيء ما سيبعث فيها الجنون , لم تتوقع بأن الحب ايضاً يحمل جينات الحزن وينصب أفخم انواع العزاء صرخت مرة اخري مضيئة :

- لهذا أكره الغرباء

أضرار البيانو

منذ أن كنت صغيراً تعترضني اسئلة كثيرة , مثلاً

- كم اصبع أو زر يملكه البيانو؟ وهل تصدر الأضرار عدة اصوات أم انها كالبندقية تماماً تصدر صوتاً واحداً جهوراً مخيفاً , ولها زر واحد يُدعي زناد , وهل اصابعها ما زالت كما هي أم أن الحرب بترت بعضاً منها تماماً كالايادي الملوحة دون انامل .

سأكون كاذباً إن قلت لكم أني جلست خلف آلة يخرج من جوفها الموسيقى , خلف جهاز أتحكم في إيقاعاته ونواته , لكن ثمة غطاء لبيانو قديم في ذاكرتي , ثمة أضرار مبعثرة داخلي , لا أعلم هل هي اجزاء من الفرح تحاول أن تتشكل داخل هذا الجسد المنهك أم أن الرغبة تأخذ حياة ورم خبيث عبر الخلايا , جاءني صوت لا أوقن مصدره يقول :

- إنه سرطان الرغبة

اكثر من سيمفونية يدوزنها الليل العتي , اكثر من طفل يلهو في فؤادي , ربما كل اطفال الوطن سكنوا فؤادي بكل ما يحملون من ألم وحياء , براءة وحزن . فالقسوة احياناً تأتي علي حياة منطلق علي نهيأة رصاصة .

بعد خمسة وعشرون عاماً , ها هو البيانو ذاته جالساً امام أنثي سمراء بوجهها الدائري وثوبها الابيض , متكأة علي فخامة المكان تداعب انامل البيانو وكأنها تسرقني أزراري , فهي تلامس الأضرار التي في ذاكرتي بالضبط , الاسود المتآكل . الابيض المكسور , والصدفة أن يكون ذات الغطاء او هكذا خيل لي .

وضعتني بالقرب منها في طاولة لم تخصص للعشاق والاسر , كرسي واحد ومنفضة وكوب قهوة لم يفلح النادل في أخذه قبل جلوسي , كل من في المقهي مشغولين بمن يجلسون قبالتهم العشاق , الاصدقاء , وهناك من يمسك بمجلة , إلا أنا . ربما أنا فقط من يفتقد هذه الموسيقى وحدي من يجزبه الأنين المستمر والإيقاع الفريد , تأخذني الي مدينة نيالا وبالأدق مباني الأسفلت الإنجليزية المحازية للسكة حديد حيث تركت قلبي يدق ابواب العدم ويصنع من ضجيج المكان لحناً سرمدي يضاهي عنفوان الشباب وأرق القضيب من ثقل القطار , وحدي من قسمته براعة تلك الأنثي الي حاضر وماضي ومستقبل

ربما لغة الموسيقى اكبر من أن تضعنا دفعة واحدة في رحلة عبرالزمن بحقائب فارغة إلا من الحب , واصغر من أن تداوي شقوق الذاكرة التي لم تشاء السماء ان تهذي قط , الان ثمة أنثي تجمعني مجدداً في لوحة موسيقية وفي مكان ما مسحت احداثه معالم جغرافيته , أنثي تلملم شتاتي من ارصفة المواعيد , المدائن , البحور , وتلك العصية الذاكرة

لم أتذكر في ذاك الوقت سوي جارتني حجازية التي قاسمتني الأمل وذودتني القوة في انتظار الزمان ليفسر لي سر أزرار البيانو , حجازية التي تتقمص احياناً دور محبوبتي وتسرقني قبله كل مساء وكنت امازحها , ماذا تركتني لفاتن , حجازية التي تنبأت بسيول الحرب وهي تختمر حتي أخذت شكل حصان وبنديقية وبعض الخرافات والبدع

حجازية زوجة الشهيد عبدالله الفنجري

حجازية تجلس علي كرسيها الخشبي وهي تقص للاطفال قصة علي بابا واللصوص , والاطفال في غاية الدهشة والإستمتاع وأنا أقهقه بألم هناك خلف الجدار متذكراً مقولة صديق لي يُدعي كرم من سوريا يقول :

- مرّ الكثير من الزناة والقراصنة والمقامرون وقطاع الطرق علي شاطيء بحري , وما زال المرور ممكناً ومتاحاً نحو الابدية في تفاصيل القصة البلهاء.

- أظن أنك محقاً يا كرم , ولأنني أخشي دائماً أن أجزم في ماهية الاشياء , او ربما اخاف البت في معناه المجرد , أكره الحسم واترك الاشياء هكذا علي عتبة الوقت

ها هو البيانو يأخذ هيئة طفلين بريئين جميلين شائت الآلهة أن يُنجبا في وطن اخر وجغرافيا اخري تشبه كثيراً وطن منقو قبل البتر والتبلور , تُدعي سوريا . طفلين رائعين يلعبان الآن مع صديقي كرم طفلين يحملان السماء حلماً علي ظهرهما ...

طفلين يتمخضا آلاف الاسئلة ...

وأُنثي البيانو تلعب في رأسي الآن , تصنع من شظايا المخ طُعماً لوتر جديد تغزله علي مهل تستحي من المكوث اطول فترة ممكنة بجوار هذا الكم الهائل من التوتر والقلق , تتصورني جرحاً يتحرك او ربما زراع يئن تحت وطأة منزل قديم , هوى فجأة علي ساعد الحلم الجميل ليتحول الى لا شيء تحت الأنقاض ،

تُري هل ستعود حلماً مرة اخري أضعه في حضن فاتن ؟

تُري هل ستبقي هكذا ؟ , تخرج رويداً رويداً من بين قصص حجازية نحو الفراغ ، في الأفق تتسع مخيلة المستقبل , تضخم عواقب الانتظار وتكتفي بأنصاف الحلول , انصاف المخاوف , وانصاف الإحتمالات ايضاً . تحاول أن تكون مثالية بعض الشيء مع شخص لا يرضي بما هو عادي وطبيعي , آه كم يلزمننا من الغباء لنكون رائعين في مجتمعاتنا , كم مرة نلتفت لنجرب حظوظنا المتكأة علي النفاق والتصنع

كم مرة يا فاتن ؟

الى متي سألعب دور الرجل الملتزم المتدين كي انال إعجاب والدك

في كل جلسة قهوة كنت أرغب بشدة في إخبار والدك بحقيقة الأمر , تمنيت أن أتقياً الحقائق في وجهه كعادتي , لكن كنت ألمح عيناك في وجهه , كنت أراك خلف شيخوخته أنثي شابه ترقص بعشوائية وفي نفس الوقت تمر وصاياك بخاطري فأتجاهل الفكرة او ربما أصب غضبي على فنجان والدتك البريء , كل العطور الفخمة يا عزيزتي لا تقتل رائحة التبغ والخمور ولفائف المخدرات , ثمة سر سأقوله لك يا فاتن ليست لدي القوة الكافية للمكوث اكثر من عشرة دقائق امام والدك صاحب البطن المترهلة وضحكاته المجلجلة ليحكي لي بعد التحية مباشرة سلسلة مغامراته الفاشلة وعمله في السلك الحكومي كرجل شرطة برتبة نقيب , كان دائماً يتحدث عن السجناء , عن الحمقي المدانون والاغبياء المتهمون , عن الصول حسن رجل التعذيب , عن بائعات الخمر , عن الرشاوي والمحسوبة , عن مداهمات الشرطة للاسواق الشعبية , صدقيني لقد كرهت والدك منذ ذلك الوقت بقدر حبي لك , لم أندش عندما أغلق الباب وقدم لي النبيذ لانه سلوك متوقع من رجل قانون فاسد جاحد .

لاول مرة يجمعني سقف واحد مع القانون وكأس ايضاً , القانون تماماً كما وصفته محاسن بائعة الشاي والهوى - وكان الحكومة تقف امامي عارية تماماً حتي من الحياء تقاسمني قنينة اجنبية قيمتها خمسة دولارات امريكية مأخوزه من جيوب الوطن .

وفي زحمة تهيأتي أرى حجازية في مخيلتي تقارن نفسها بفاتن بثوب لم يأتي به والدها في عيد ميلادها الاخير , بكفين لم تخضبهما الشوكلاه بشعر باهت وعينان ناعستان لم تُغمض منذ ايام جراء عواسة الأبرى العتيق .

بدراهم إكتسبتها من الإحتطاب ، وأعود مرة اخري لأجد العجوز يناولني كأس آخر ...

بعد كل كأس أرتشفه يبتعد الثائر الذي بداخلي خطوتين , بعد كل جرعة أري قضيتي تجمع نفسها ورقة ورقة متأهبة للإنزواء او الرحيل , أري الشهداء يخرجون من قبورهم , يلعنونني بشدة , أري الأرامل يصرخن ويبصقن في وجهي , أري كرم من خلف شاشة هاتفي يذكرني ويضربني كي أعود الى رشدي .

هناك في الزاوية تجلس فاتن بكامل برائتها وعيناها يفيضان بالاسئلة , تسألني عن ذنبها في ما يدور , هل هي من إختارت والدها أم انها مشيئة الرب , الاقدار مرة اخري تضعني في موقف حرج ,

أأختار فاتن وحدها , أم حجازية والثورة والوطن وصديقي وطفليهِ وقضيتي ؟

ها هم الشهداء يصرخون , لن نعود حتي تختار , لن نرقد بسلام وعليك أن تحررنا من هذه الضائقة , ها هن الأرامل يجلسن بالجوار يأخذن دورهن في المشهد وينتظرن القرار , عليّ أن اتنازل عن الحب , لا يمكنني أن أبدأ وطن واحد بأكثر من وطن , لا يمكنني أن اترك الموتى هكذا في العراء , لا يجب أن يتضرر اكثر من شخص اكثر من قلب اكثر من وطن , أزرار البيانو تتهمني بالخيانة , حجازية توقفت عن سرد القصص والاطفال جميعهم ينظرون نحوي في إنتظار قراري الذي بمثابة رصاصة إما أن تقتل شخصاً واحداً او تقتل الجميع

لا أرغب في الحب , لا أرغب في فاتن

فاتن _ هكذا ببساطة

لم اتجرأ على النظر إليها , هكذا جعلنا الحب يعيش مجدداً في الدواخل , هكذا قتلنا كل شيء جميل يخصنا

في الصباح ...

جاءتني حجازية في ثوب العلم

جاءتني تزفها الارامل , الشهداء , الاطفال , الوطن

جاءتني علي مهل وهي تجمع في طريقها قضيتي , احزاني , اجندتي
لنكون قصة سردتها للاطفال في شكل فلم وثائقي في شكل مسلسل قتل
فيه البطل من اول حلقة وحرب مات فيها الكثيرون.

ربما سألتقي بفاتن في حياة اخري كما تقول هي ، ربما هذه هي سر اصابع
و أزرار البيانو ، ربما وربما ، ويبقى الجزم محرماً في منطلق الاشياء التي
نجهل روعتها وردائها علي أي حال ، كالبدايات مثلاً ، كالنهايات مثلاً
وكحجازية احياناً.



توهان

كلما أرى وطني الموبوء المحتل اشتاق الى تلك المنافي الموحشة المحببة الى قلوب اشخاص ما فينا, وعندما يضايقني المنفى ويأجج الحنين اشتاق وطني او ربما تترقبه ذاكرتي وتعيدني الى ذاك التفاضل المميت بين بيتاً يحترق ومهجراً لا يبدي عناقاً يليق بطفولتي, هو صراع بين ماضي تليد وماضي قريب شكلاً رجلاً بداخلي كما يجب أن لا يكون, وصورة أمه المخبأه في حقيبتني بين عشرات الوعود والتذاكر _ اشقائي _ اصدقائي وتلك البيوت الطينية العامرة برفقاء الهجعة والشامتون ايضاً, احلام البسطاء تراودهم في صحوهم وذاتهم تعيد صياغة إمتناع جديد, ربما لأن خطيئتي هي عدم رضائى بتلك الاشياء العادية, أن احلامي اكبر من أن تخرج عبر تلك النوافذ المشرعة من غرفتي الطينية , خطيئتي أنني لم أكتفي بالدعاء وإرسال الإبتهالات نحو السماء, خطأي عدم المقاومة عندما قررت الارض أن تلفظني بعيداً ,

هكذا إذا...

منذ طفولته يمتلكه فضول التعرف على الاشياء بطريقته, يمتلكه إحساس ما فحواه أن الجميع يصيغون سير عن ماهية الأشياء وفق قدراتهم الذهنية او على الأرجح التي يستطيعون إمتلاكها, كان على يقين بأن ثمة فوارق عقلية جمة وآليات تجعل الإنسان متجلياً في علاقته مع حواسه, إذاً الحقيقة بالنسبة لموسى خفير مجرة إقتراحات او وجهات نظر حظت بعدد كبير من الثناء والتأييد ,

والدته عشوشة الحكامة او كما يسميها موسى مباحاً بائعة الارواح تبدو في أبهى شاعريتها وهي تحكي لابنها روايات الحرب وشجاعة الفرسان واصالة

الخيول في صراعها مع الطبيعة والآخر المختلف, المختلف دينياً وعرقياً وثقافياً بل وحتى تلك التي تحظى بحلقة صراع اكبر اللون, تحكي عن وقائع اطلقت عليها إنتصارات او ربما قصدت أن تحظى بفارس اخر في مستقبلاً ما تراه قريباً, لم تكف عن مدح اشخاص من بينهم والده بابكر عن بسالتهم وفروسيتهم وضخامة اجسادهم وقوتهم التي لا يكثر لها موسى, كان يضحك بهستريا وتكلف في نفس الوقت وهي تمضي به في أوج حروباً لم تكن من اجل سماء او عقيدة او عرض كما لُقن خلف الاسوار الشوكية, اسوار شوكية تحمل لافتة كُتب عليها مدرسة , المدرسة وقصص عشوشة شكلاً تضاد عميق في جوف موسى خفير, شكلاً صراع جعله يتقنى بعض الحقائق, ربما رغبته في معرفة الحقيقة او محاولة لإيجاد وسائل تُبرأ عشوشه في نظره, وقف عند زاوية القرية وأخذ يتفحصها عن كذب بعينان محايدان وبسجية الإنسان المجرد من الإنتماء الى مفاهيم التطرف بمختلف انواعه, لكن صعوبة الامر والوعي المغلف بالأيدولوجيات والهامش ساهموا في أن لا يتوصل موسى لشيء في الثلاثون ربيعاً من المكوث في قريته تلك شاهد موسى وسمع ورأى بل وإستنشق راوائح الكراهية والضغائن, وكان تلك القرى دول صغيرة تحارب من اجل مواطنيها وكأنها جنان تحفها ملائكة الشر حفاظاً على آلهة مجهولة وعبيد دخلوها بعد قرن من القداسة والورع, شبح والده بابكر ممتطياً جواده وهو يصرخ ؛

- أنت جبان يا موسى أنت امرأة يا موسى لماذا لا تحارب مع الرجال كالرجال ؟ حتى والدتك أشجع منك, يا ليتني استطيع قتلك لأغسل عاري.

لبرهة أحسّ وكأنه يحمل في احشائه طفلاً ليس شريعاً, لأن النساء الحوامل اللائي لا يملكن ازواجاً يقتلن في تلك القرى او يهربن الى الغابات المجاورة ليصبحن طعاماً شهياً لسكانها وفي كلا الحالتين يفارqn الحياة

وهذا هو حال النساء في مجتمعات تختزل معنى كلمة شرف في غشاء
بكاره

بعد التفكير ملياً في الامر قرر أن يهجر قرينه الدموية, قرر أن يهرب حتى
تسبح الظروف بالعودة الى ما اطلق عليها مجازاً هواكير لظى, سافر الى
حيث الموت مختبأً خلق القضبان ومقصلة الإعدام, الى حيث الموت
متجلياً بكل صورته عدا أن يمسك احدهم ببندقية او سيف ليسلبك روحك,
هناك الموت مغاير تماماً ومروعاً في ذات الوقت, قال في نفسه :

- المدن تقتل ببطء وعلى صورة اجزاء.

عمل خياطاً بإحدى الاسواق الصغيرة بصحبة كهل طاعن في السن ساعده
فيما بعد على أن يلتحق بمدرسة ثانوية في اقاصي المدينة او بالأدق حيّ
شعبي متعدد الاعراق والاجناس وحتى اللغة, أحسن بتلك المفارقة والتي
جعلته يدخل في دوامة مقارنة باهتة لعدم إمامه بالمدن وخوفه من لعنة
الماضي وذكره, تذكر بوجودان طفل والدته عشوشة ووالده بابكر عانقهما
عناقاً طفولي وعاد مرة اخرى على صوت ذاك الكهل وهو يردد:

- عليك أن تلتحق بإحدى المدارس وإلا سينتهي بك الامر كما ترى!
رجل عجوز دون ابناء او زوجة ودون حتى من يبكي عليه عند وفاته,
إلحق بنفسك يا بني وإلا لن يفتقدك احد, إصنع شيئاً خالداً في
حياتك _ صدقني

عاد للعمل ولكن صدي حديث ذاك الرجل يتردد بين الفنية والاخري,
صدي ثقيل يصبغ اذناه الواسعتين, صدي يارقه وكأن السماء كلفته برسالة
ما الى قوم أشد لعنة من قوم موسى النبي, حرص على إرتياد تلك المدرسة
حرصاً متناهياً متنامياً طيلة الثلاث اعوام, ثلاثة اعوام كانت كفيلة بصياغة
إنسان قروي جعل الامر مستحقاً كفيلة بأن تصنع حلم وهدف سامي
يسعى إليه, كفيلة بأن تضعه في اول الطريق

لكن صديقه العجوز لم تطاوعه السماء ليرى موسى يعبر تلك المرحلة, لم تدع ذاك الكهل ينعم بإحساس الأبوه قدر الإشباع ؛ إشباع حرمانه الأبدي, لمح في موسى ابن لم يكلفه الله عناء إنجابه وسنداً جاهزاً للإتكاء ، لكن لله ما اعطى ولله ما اخذ .

تألم موسى حد البكاء, كان يظن بأنه وجد أباه الروحي أخيراً في زحمة المدن العجيبة والتضاريس والفصول, أزر نفسه بنفسه مواسياً ذاته العميقة مقدماً بعض الوعود وممهداً لخلود ما أيّ كان نوعه .

سافر بعد أن عزي نفسه والمدينة الى بلاد لم تتنبأ بها مخيلته رغم خصوبتها أخذته الاقدار الى القاهرة ليلتحق بجامعة قناة السويس _ كلية الهندسة, جالس فيها عدة مجتمعات بعدة ثقافات وحضارات, شاهد فيها بلاده من زوايا متعددة ومن وجهات نظر متعددة ايضاً, كان حاضراً في تلك الليالي الثقافية والندوات التنويرية والتوعوية عن الحروب الاهلية وصراع الديانات عن المدارس السياسية والتيارات اليمينية واليسارية , وفي خضم ذاك الحراك المعرفي وجد نفسه وبلاده اكثر من مرة بل وجود هواكير لظى كان طاغياً للغاية, توصل الى حقائق غائبة واخري مفجعة حد الصدمة, علم أن كلمة جنجويد تعني بابكر وعشوشة وكل من يمتطي جواد او عربة دفع رباعي ليحقق مطامع إثنية او اللامنتظية الإستعلائية, تأكد أخيراً بأن عشوشة ليست بريئة بأن سكان ما اسماهم بهواكير لظى هم من انتجوا ذلك الصراع الذي يخدم اجندات خفية طفت الى السطح, لأول مرة يعرف من أيّ سماء سقطت تلك البنادق على أرض الكادحين وأيّ إله اسقطها ، قال في نفسه بعد أن محى آثار دموعه:

- ما اسوء أن يخبرك الغرباء بما يحدث في بيتك!

مضى الى أن لامس النيل, النيل الممتد من وطنه الي اوطان أخرى, تعانقا عناقاً خفيفاً خشية أن يتعمقا في علاقتهما, تعاهدا على أن تبقي العلاقة

سطحية بقدر الإمكان, كان يزعم بأن النيل محايداً يجب أن لا يعرف شيئاً وكان يحقد النيل في نفس الوقت لأنه يملك اكثر من وطن واكثر من علم

في السابع من يناير لعام ستة عشر وألفين وصباح ممزوج برائحة الورود النقية التي تنبعث من ارصفة القاهرة المدينة الفرعونية رحل موسى الى العراق حيث الاوطان المحتضرة تتشابه والطغاة والضحايا ايضاً يتشابهون, كان حلمه أن يحظى بدقائق مع معشوقته بغداد والدة المتنبى, فرحة خاصة إعتريته وهو يستعير منها الدفء لبيد شتاءات الماضي البعيد؛ سحق كل المسافات من اجلها _ تذكر حينها عشوشة بائعة الارواح تذكر تلك القصص المضللة لكن بالرغم من ذلك ثمة مشاعر مجهولة تسوقه إليها, هو ابن وهي أم ومن الطبيعي أن نجد تواصل غير طبيعي, وهذا هو السر الذي وضعه الرب .

هل ضيفاً على بغداد في وقت كان في أمس الحاجة لبقعة او إنسان يعشقه من الدواخل, داعب ازقتها ومقاهيها _ خالط شعرائها وفنانوها وكان لنادي الادباء رونق وبريق خاص خاطف, شعر وكأنه يأخذ نزهة في كتاب, وكأنه يجوب بلاد فارس في عصرأ مضى وما اصعب المضي الى الوراء, هو هكذا يحزن نياية عن كل قطعة ارض تئن وبشر يعانقون الموت, سأل نفسه حينها:

- كم حياة يتخذها الموت ؟

مكث هناك على هامش المدينة, لا ادري هل هو من يعشق هوامش الاشياء ام الهوامش هي من إستذاقت مكوثه, إستأجر غرفتين في حي الصالحية الذي يعج بضجيج الاطفال ودوي المدافع ليُبقي جسده عرضة للحاق محتمل يا حدي قبورها التي تبدو نهاية مستحقة بالنسبة له, لكن عندما لا ترغب السماء بك لن تستطيع وحدك في لحظة إحباط أن تذهب إليها, شبح الوطن المشابه يطل من نوافذ الامكنة نصف المغلقة وعبير عربي مغلف بالدماء يقتحم انفاس موسى متلصصاً ومداهماً ذاكرة ملت

التنقل والسفر عبر بقاع وازمنة ومسافات لا تقاس بمنطق الفيزياء وقوانين الفلك، لتوقظ اوهام العودة بعد تحقيق احلام مجهولة لم تسمح طفولته المشردة أن يصيغها على فراش المهد، فما اسوء أن تعي في لحظة ما انك لم تتذكر من طفولتك شيئاً قبل الثالثة عشر من عمرك وتبدأ تلك الاشياء بمطاردتك عند الكبر لتضعك في أوج توهان عميق لا تدري متى سينتهي!

بعد خمسة عشر عاماً...

وفي لحظة تخلص فيها من مخاوفه قفدت فكرة العودة الى الوطن متخذة عدة توقعات منها احتمالية تغيّر الاوضاع في البلاد خصوصاً هواكبر لظي وأن السماء قد قررت نيابة عن سكان البسيطة إنهاء الحروب او ربما نقض العهد وتعجيل العقاب وفي كلا الحالتين يُعد تدخلاً حميداً، هو يتمنى أن تنتهي فحسب لا كيف؛ لكن كلما أعاد التفكير في الامر بعقلانية ادرك أنه مخطأً وأن النهاية لزاماً على الارض خلق جيناتها وجزورها _ وفي خضم ذلك العراك الداخلي المميت بين المنفى المُعذب والوطن المُعذب هط مقزوف آر. بي . جي ليحسم ذلك الصراع ويبت في امر الوجهة النهائية لموسى خفير، هي نهاية ايضاً لكنها ليست التي في ذهنه، بل رداً قاسياً لذلك السؤال الإعتراضي المنطقي:

الى متي التأرجح؟



عزاءِ علي ورق

هي طفلة نسجتها في مخيلتي تواطئاً مع أنثي على الورق ، ولأسباب اجهلها
أطلقت عليها ,نضال ،

مارس شهر السنة الضوئية في فضاء الذاكرة حيث الايام لا تقاس بمنطق
الارض ولا حتي إعتقاد الارقام والكهنة , مارس الذي يؤرقني نبضه عند
دورانه كل عام ضوئي , مارس المعبق بجينات الوداع وهرمونات الرحيل ،

ها هي نضال في موسم عفى المناخ عن تسميته , تحاصرني كالأفكار
وتساومني علي روح تقسم بيننا ذات حلم , فكرة الحياة على الورق لا يروق
لها , في نبرة صوتها بحة حزن عميقة جداً , تحسست لأول مرة ألم ضخم
تحمله في طيات إبتسامتها وفشلت هذه المرة في إخفاءه , فشلت في
تضليل حواسي او ربما كنت دقيقاً هذه المرة , هي هكذا لا تحب مشاطرة
الألم وتدفن حزنها , اسئلتها , خوفها , كلما أفرطت في توزيع الإبتسامات ,
كلما هربت من نظراتي اكثر من ثلاثة مرات في الثانية أيقنت أن الألم كبر
وبات أشرس , إذأ قارئة الفنجان صادقة في نبوءتها , كاذبة تحيك صدق او
هي الصدفة ،

- أأست محقأ يا نضال ؟

أأذكرين تلك الليالي , تلك اللحظات السعيدة , حينما نلعب الغميسة ,
حيث تربطين قطعة قماش حول عينا القلم وتهربين وتركضين الى حيث
اجدك كل مرة بعد بحث أتعمد إطالته بين السطور , ابحت عنك خلف
كل فاصلة وسكون خلف كل الآهات والكسور خلف كل قافية ومشهد ,
اجدك بالقرب من كلمة أماء دائماً , قربها بالضبط في كل السطور تعانقينها

وتبكين تحاصرينها حتي تبتل رزمة الورق وترسمين بدموعك بقعة ظاهرة
ككوب عزاء إندلق على كفن أهمله حارس المقبرة

أتذكرين عندما كنت تخفين الأدلة عن وجهك , عندما تمسحين دموع
الحنين والإشتياق لترسمي إبتسامة جميلة توهميني بها , صدقيني انا من
وضع ذاك المنديل في جيبك . وضعته لأعرف كم مرة ستبكين في اليوم
وكم مرة سيلامس خديك الناعمتين , هو ايضاً كان يشكو ويعتذر, كان
يقول أنه لا يستطيع تحمل براءة القطرات , آه , كنت أعلم ومع ذلك أترك
لكِ مجالاً لتبكين , أترك لكِ فرصة لتعانقي والدتك , تعانقيها هكذا بين
قوسين , انا ايضاً كنت أبكي , أبكي لأجلها . لأجلك ولأجلي ايضاً , لقد
تعودت منذ طفولتي أن أبكي لأجل أيّ شخص أن أبكي نيابة عن هذا
الكون وعن كل قلب حزين , حتي دموع الفرح أتكفل بها فالأشياء التي
تموت يا حبيبتي لا نستطيع إحيائها حتي وإن كانت جثة علي ورق حتي
وإن كان القاتل يراع رفض المثلول إلا للطبيعة حتي وإن كنا نحبهم
ويحبوننا , لا شيء يعود الأيام الجميلة الأصدقاء الرائعون وكل شيء ,
هكذا هم يموتون مرة واحدة ونحن بدورنا ندفنهم كل ليلة واكثر من مرة
اصمدي يا نضال فالنضال صمود , ها هو الليل يحمل في جُعبته الكثير
من الأرق والإرهاق , يجثو علي صدر الدفاتر ويتسلل بين السطور باحثاً
عنكِ . عني وعن تفاصيل لا ترتقي الى الابدجية او ربما حتي الابدجية لا
تملك القدرة على صياغتها , فاللغة احياناً لا تستطيع حياكة احاسيسنا في
جمل , أراك , أراك يا نضال تخرجين في عتمة الليل وانتِ تحملين بعض
الورود البيضاء قاصدة قبر أماه في الفصل الاخير , أراك حافية تتسللين
من بين احضانني واضعة يدي علي رأس دमितك مشاعر كي لا أحسن ولا
يحسنُ بكِ السرير , او لا أري عينايت تتعد او تسير ؟

حباباً اتجاهل الرؤيا وأغفو ليلتين , حباباً اترك الباب نصف مغلق او أقل , حباباً
اجمع الغطاء على وجهي كي اداري إستفاقاتي والقلم , والأن يا طفلتي حتي
الدفاتر لا تكف عن الصراخ حتي الشعر رفض المثلول امام ارباب الأدب

وبات يرفض إنصياعات المداد للقوانين الرتيبة , حتي انا اصبحت لا ادري كم توازي إبتهاالاتي في موازين الإلة من اصل الخطيئة .

عند تخرجك من الروضة , تمنيت أن تخرج أماء يوماً في العلى من سجنها الأبدى في وسط الكتاب لتنهأ الوطن الصغىر , تمنيت أن تطبع القبل القديمة كلها , تمنيت أن اقول لها ها هي نضال كبرت وباتت تملأ الشارع ضجيج . تملأ القاعات لحنأ وموسيقى , تملأ الآفاق حبأ في المساءات الأنيقة , ترقص فرحأ وتنشد امام مآت البشر قصائد من كلمات أماء في مهد الصغىر . قصائد صاغتها وهي تحمل نضال في احشائها حلم جميل ووطنأ أبدلت جيناته حبرأ ودماً.

ونضال تكبر في يدى مع كل بيت من شعر , تكبر هكذا وسط السطور فأرسم لها اجنحة ملونة كي تطير كي تحلق أعلى ما يكون كالعصافىر الجميلة في سماء لم يخص لأحد لتعانق القوافى في السماء , قالت بعد أن امطرها العالم بالإهداءات والقبل , سأخبر أماء سأدعو الله ليفتعل لنا لقاء في الجنة , لقاء الى الأبد , لقاء نقتل به كل يوم حزين وكل مسافة لعينة وكل وقت قضيناه بعيدين عن بعضنا , سأجمع احزاني واحرقها دفعة واحدة في هيئة شوق إجتاحني منذ الأزل

- هل تذهب معى ؟ أو لا تشتاى أماء يا أبى ؟ أو لا ترغب في لقاءها ؟

وانا أقف مصدوماً امام طفلى , أقف مذهولأ أصم امام حبيبتى الصغىرة التى تداهمنى بإسئلتها وتحاصرنى على الورق , لم تترك مساحة فارغة او فاصلة اهرب بعدها الى فقرة جديدة او نقطة أنهى بعدها هذه المقابلة التى إرتجلها القدر ليضعنى في موقف اقوى من ما كنت اتخيله .

الرحيل هو الرحيل إن كان بوداع او دون وداع , إن كان بكاء او دون بكاء , إن قالوا بأنهم ذاهبون او لا , فى الحاليتين سيحطمون قلوبنا وبيعثروننا الى أشلاء وفى الحاليتين ايضأ سنلحق بهم يا صغىرتى

بعد عامين ...

وفي صباح لا يشبه الصباحات القديمة , فاجئتني نضال وأفجعتني في ذات الوقت , رحلت الى حياة اخري ننتمي إليها جميعاً , حزمت حقائبها دون أن تخبرني او ربما لم تكن تعلم الى أين تتجه , حفرت قبرها بجانب أماء منذ اخر زيارة , ماتت ودفنت نفسها هكذا بين قوسين في بداية أقسمت أن لا تنتهي , لم أكن دقيق لأفهم قصدها عند اخر حديث صريح بيننا , ذهبت لتكون بجانب أماء كما قالت لتعانقها اول مرة , اول يوم تكون فيه دونني واول يوم اكون فيه دونها واول يوم لها مع أماء , انا لا شيء دون نضال

حتي دميتها مشاعر كانت تبكي , بل رفضت أن تأكل , كنت أراها وهي تأكل مع نضال رأيتها اكثر من مرة يمارسان طقوس اجهلها , رأيتها يتهاامسان ليلاً في اخر يوم لها وكأنها كانت تودعها وتجود لها بسرّاً تحفظه لي , بكيت معانقاً مشاعر دمية طفلي وصديقتها وإبنتي الاخري , همست لها متسائلاً :

- هل تركت لك بعض الوصايا يا مشاعر؟ هل قالت شيئاً؟

أجابتنني بصوت مبحوح

- أجل

قاطعتها

- ما هو

قالت وهي تبكي

- هناك قبراً بين قوسين في الفصل الأخير أهدته لك

محطة تيبورتينا

حيث القطارات لا تكف عن الصراخ , والمشردين ايضاً ، محطة أجبرتنا الحياة أن نقف فيها لوقت حددتها هي , وأزاحت القناع عن مدينة روما لتظهر أمام أعيننا قبيحة جداً ولأبعد ما تتصور ، خانتنا أحلام الطفولة او ربما لم تكن تقصدنا او كما يقول من هم تحت ظلال الامكنة التي لفظتنا بعيداً الهاربون ، تيبورتينا مأوي الاجساد الهشة وبيت الأموات الضاج بأنين الغرباء الغرباء جداً حد الإنتماء الي كوكب آخر ، هذا ما قاله يسوع عندما قدمت له قطعة البيرغر الحارة , يحكي وكأنه وجد أخيراً الله بالصدفة في إحدي شوارع العاصمة الإيطالية وأنا عبداً لا تطاوعة فرشاة الرسم وأقلام التلوين علي تحدي بيكاسو القديم المتجدد , أنا الذي لا يختلف كثيراً عنه إذا ما جُردت من معظفي ومخيلتي العذراء وأدميتي سألته:

- أين تسكن يا يسوع

أشار لي نحو محطة القطارات مضيافاً:

- الأن نسكن هنا في غرف السكة حديد وآخرون علي السكة نفسها لكن! لا أعلم أين سنكون عند المساء فالأيادي القادرة تحولنا كرقعات الشطرنج أينما شاءت وكيفما شاءت لا شيء هنا مثالي
- هل تعرفون بعضكم البعض
- نحن دماء متعددة الجغرافيا والجنسيات فقط تجمعنا الظروف التي صدرتنا من بلداننا الي هذا المكان الذي يشبه كثيراً البقع التي تركناها , وإن كانت لا تطعمنا الرصاص .

يسيع صورة مصغرة لآلاف مثله بين أنياب وأنقاض الجوع والمرض وفي أحضان
اللامعقول , فملا محهم الوحشية تعكس قذارة أمكنة ومجتمعات إنحدروا منها
مرغمين علي المخاطرة بأنفسهم فالأمر يفوق توقيع معاهدات علي الورق وتسميتها
علي هوي الموقعين

هل تعلمون ما معني أن تتمرد عليك الأرض ؟

معني أن تضل حتي الطريق الي ذاتك ؟

معني أن تبحث عنك في إبتسامات المارة ؟

مجتمعات ستموت فيها أن لم يخلقك الله وفي فمك ملعقة ذهبية والأبشع
من ذلك أن تضع ضميرك في محفظتك وتذهب الي الجنان , جنان لا تدوم
طويلاً وقد يتكرر دخولك وخروجك منها أكثر من مرة , دموعنا , دموعهم
لا نستطيع خنقها في جفون تمردت علينا وسالت كالخذلان علي خدودنا
العارية تماماً من علامات الخجل , فتورة الأحاسيس والمشاعر بداخلنا لا
تكفي لإشعال تلك الأوراق المرصوفة أمام أصحاب الياقات البيضاء
تذكرت حبيبتي أسماء وأنا أتجاذب اطراف الحديث مع يسيع , اسماء التي
جاءت بها الحياة علي صورة تلك الخطيئة المرتكبة في حبو الزمان والي
آخر قطرة من خندريس حواء الذي يغادر قدرتها تواء الي إمعاء من لا
يملكون سوي البنادق مروراً بأصحاب المكاتب المغلقة والجباه الموسمة
سألني يوماً هل سيعاقبها الله علي خطيئة وجودها هنا دون وثيقة ؟

أجبتها والعبرة تخنقني :

- لا لا يا صغيرتي انت لم تذنبى , نامي الآن

نامت هي او ربما أغمضت عينيها لتوحي بذلك موقظة جرحاً قد لا يندمل
مدي الحياة جعلتني أسترسل إستفهاماتها الي باطن العقل المشلول نوعاً
ما وأعود دون أجوبة تقنعني او تقتعها

أه ،،، يا إلهي

لا أستطيع ، فقط اهرب من أسئلتها التي لا أستطيع البت فيها أمراً أخاف أن يجعلني متواطئاً ايضاً في نظرها ، ليس هناك أبشع من مكان ضيق تضعك فيه طفلة ذكية كأسماء إما أن تُغلف الحقائق ككاميرا مهرولة خلف دبلوماسيين أو أن تُدلقها هكذا دون رأفة علي منضدة السائل لكن محاولة إزالة القذارة عنها شيء مستحيل أفقت من كابوس الورا على صوت يسيع وهو يطلب قطعة بيرغر أخري والمؤسف أن نقودي قد نفذت لا أملك حتي ما أشتري به ورقة أخري أسكب عليها إفرازات الواقع النتن ، بعثت بقطعة أخري على أن أسدد قيمتها فيما بعد بضمان أنني من الرواد المتكررين علي المكان لا أحتمل معاناة الأوطان المبعثرة في محطة تيبورتينا وإن كان بوسعي لصنعت كرة أرضية تضمهم وتضميني ، يسيع يقضم الساندوتش وكأنه يلتهم كبدة أحد صفوة بلاده وكأنه في نزال قوي مع السلطان بأخر روح تبقت له وقرر أن يلفظها مقابل أن يطمئن علي الاجيال القادمة ،

سألني يسيع سؤالاً مفاجئاً!

- هل أنت ايضاً مشرد؟
- نعم يا صديقي جميعنا مشردين بطريقة او بأخري
- إذاً ستعيش معنا هنا في المحطة ، أليس كذلك؟ لا بأس لدي مكان لأجلك
- لا سأذهب الي مكان آخر وزاوية أخري من هذه المرآه التي تراقبنا بشدة
- سافتقدك يا رفيق لكن علي الأقل قل لي من أنت ربما نلتقي مجدداً
- أدعي لباب يا صاح

- إسم جميل لوطن رؤوف

لبرهة ظننت أنني أعرف يسيع من قبل ولم تكن هذه الصدفة من جمعتني به ، رأيته من قبل حتي وإن كان في داخل شخصاً آخر لأن وقع كلماته عليّ تشبه سزاجة شخص أعرفه جيداً . لا يهم ، سألته :

- هل هناك أوطان رؤوفة يا يسيع ؟

ضحك ، ضحك بصوت عالٍ جداً ثم أضاف :

- الأوطان يا عزيزي اسماء مستعارة تسرقنا وترمي بنا في سلال أوطان أخرى مستعارة ايضاً لنبقي هكذا مسلوبو الإرادة دون أدني إنتماء والسؤال هنا من هي دوننا؟ والى من ستنصب الأعلام وتنشد القصائد؟ الى من ستزين ومن سيُغلق نوافذها ليلاً عندما يتخللها الشتاء والأعداء؟ الأوطان يا سيدي تبحث عن الدفء في فوهات البنادق ، تبحث عن الستر في ثوب أُغتصبت فيه ذات صيف وهي تحتطب .

- آه يا يسيع أنت اكبر من أن تكون هنا في الفراغ المتناهي او علي محطة تيورتينا

- وداعاً يا سيدي فأبواق القطارات تنذر بإقترابها ، نحن دائماً في إنتظار الأبواق والنفخ سواء كانت هنا او هناك في الصُور

- همهمت والدموع تنهمر ، الى اللقاء يسيع ، الى اللقاء ايها الوطن

هي ليست سوي عبارات من صنّع البشر ليبرروا رحيلهم ، فراقهم والسفر الى المجهول او نحوه ، دائماً ما يختلقون بدع الغياب ويقرعون طبول الإياب إن عادوا ، كان الصوت لرجل سبعيني لم أتنبه لوجوده ومنذ متي يجلس هنا ، أخذ الرجل ينشد ويصفق :

صباحك يا وطن ممحون

صباحك يا حلم مجنون

صباحك يا ولد مسجون

صباحك يا مُدن

مستورة بتوب الكهارب والمجون

مرمية في حزن الثعالب

مرمية في حزن المشايخ

والظنون

صباحك يا بلد ...

صباحك يا بلد واقف علي قلم الخوازيق

والورق

سيب الدفاتر وألحق الطفل

المرق

من وسط رحم القضية

وإتحرق

حاولت جاهداً أن ألمح وجهه اللهب المغطي بالشعر , مددت له يدي
لأرحب به او ليرحب بي لا يهم المهم أن أتعرف عليه , رفض أن يصفحني
وأوماً بذلك مضيئاً :

- لقد عَلِمْنَا بأن السلام لم يُخلق بعد وأن المصافحه تمهيد لخلق مثل هذه الترهات والأكاذيب وفي كل مرة تجمع الحكومة الطين لتصنعه وفي النهاية تكتشف أنها ترسم شبحاً بلا يد يميني

- حسناً , من أنت ؟ ومن أين ؟

- أنا تلك القضية المركونة في دواليب الأمم والإتحادات وطاولات الرهان , رهان لم ينتهي بعد لنعرف هل حقا خسرنا الوطن ؟ هل حقاً خسرنا آلاف الاميال والبشر والنيلين في مقامرة قدره

على يخت متجه نحو الجنة يحمل زعماء العرب , الأفارقة

- رددتَ وأنا أتألم , لقد سألتك عن إسمك , من ؟

- إسمي كلثوم

- تباً كنتَ أظنها رجلاً يا إلهي سيدتي هل أنتِ حقاً امرأة ؟

كلثوم تضحك , كلثوم تبكي ايضاً , كلثوم تقول :

- الحرب يا سيدي أخذ كل شيء الاطفال الاحبة الاعمام بل وحتى الأنوثة , الحرب لا تترك شيئاً خلفها كياجوج وماجوج تماماً , اليوم لا يهم من أنا امرأة كنت أم رجل

- آسف سيدتي

- لا يا سيدي لا تحزن الأمر ليس كما تعتقد

- حسناً منذ متي وانت هنا في محطة تيبورتينا ؟

- لا أعلم لكنني أعلم منذ متي وأنا في إيطاليا , لدي عشرون عاماً علي الأقل

- يا إلهي , عشرون عاماً من التشرد والعذاب والترحيل القسري الى اجزاء البلاد الاخري

- سيدي مدينة روما ليست للمتسولين وطالبي الشفقة , روما
للارستقراطيين والبرجوازيين والسُّيَّاح فقط
- لروما طريق واحد فقط تستطيع أن تدخل به

قاطعتها ما هو؟

- الثراء الفاحش , روما تحب المال والجمال والحُب ايضاً فهي مدينة
العشاق والأنوار الخافتة الضبابية

وأخذت تُغني :

كُنت في بلدأ غريب

باع القيم والأنسنة

أزالوا البساط من أسفل التاريخ

وأطوار الأزمنة

صبغوا الرايات بألوان الدماء

السايلة من كل المدن والأمكنة

بحلم وأعين في البنادق

لا رصاصة صادقة

لا رصاصة قاصدة

تنسف الأعداء في الرمق الأخير

تقتل الرجل المختبأ في قصر الملوك

وتقول في صمت الدُجي

من خانني خان البلاد

- هذا يعني أن روما مدينة مادية للغاية , أليس كذلك يا كلثوم
- دعك من روما , دعك من هذا الوطن الصغير الذي بأوينا رغم مرارات
الفقد والجوع والضعف ولنتحدث عن تلك التي في القائمة السوداء
تلك التي رمت بنا خارج رحمها وبيتها , تلك المدنسة بخطايا البشر
- لا تقلقي سنعود حتماً الي اوطاننا

كلثوم ضاحكة:

- بعض الكذبات مضحكة جداً يا سيدي , عن أيّ عودة و أيّ وطن
تتحدث ؟ الخروج من الجنان مرة واحدة فقط , كأدم كحواء فالسماء
تكره التكرار والأرض أيضاً
- لا يا سيدتي لا تستسلمي كوني صلبة
- الصلابة للمعادن , كيف تأمرني بالصلابة وانت بكامل هشاشتك ؟
تباً للمفارقات . أغرب عن وجهي , إذهب بعيداً

- لا بأس

تحركت بصعوبة من مكاني مجرداً رجلاي تسبقني دموعي كالعادة وفي
ذهني كلثوم , يسبح وآلاف آخرون إكتفيت بالنظر إليهم وانا أغادر
ركبت القطار ...

محطة تيبرتينا تلوح لي وكأنها توعدني بإحتضان أشلاء المشردين الي
حين عودتي المجهولة هي أيضاً كاذبة كما قال يسوع , ستلفظهم الي محطة
اخرى او ربما حياة اخرى , إبتعد بيّ القطار , خيم الليل , وجاء الصباح
الذي أنتظره ليضربني مرة اخرى في حقائب الفجر .

إتكاءة علي الجرح

(جاد السيد _ حليلة)

السادسة والنصف صباحاً ...

يستيقظ جاد السيد على صوت والدته وهي تستعير الطايوق من جارتها خديجة , يهب من فراشه فيري جدته ممددة علي سجادتها تمشط شعرها وكأنها تغزل حلماً ستضيفه ليلاً الي دعوتها عندما تقف امام ربها قبل يديها وإتجه نحو شقيقته نفيسة التي لا تكف عن الدندنة صباحاً بعمود البُن , ليتزود من عبق القهوة دفء الفجر المشرق علي أمل جديد قال لها :

- دائماً ما يأسرني الوقع الرتيب ورد فعل حبات البُن علي قساوة المنطق وإنفعال العمود وتلك التي تُدعي حليلة وشتان ما بين حليلة والقهوة لكن ! كلاهما وطن.

نفيسة :

- حليلة تحبك جداً لكنك لم تفهمها
- الحب يا صغيرتي ليس كما تُدعي هي بل ما أعرفه أنا
- كلاكما مغروران ، هي لأنها ستدخل الجامعة وتسافر الي البندر وانت لأنك فقيه القرية واول من درس خارجها
- هذا الذي اخافه الجامعة
- لماذا؟

- الجامعة مسرح كبير جداً للأوهام ، سيئة بالنسبة لبنت لم تخرج يوماً في ثوب غير ثوب والدتها ، ستعاني ، ضعي إبريق القهوة علي النار ريثما أهزُ ضرع عازة

ألقي جاد السيد التحية علي والدته وجلس بقربها يتأملها وهي تضع الصاج علي النار ، تقلبه وكأنه أحد منافقي مكة القداما وقد أمرها الله بتعذيبه ، ملاً كوباً من قدرة اللبن التي بجوارها ورحل ، ليجد نفيسة قد أعدت القهوة ...

جلسا علي ظل غرفة الطين المتكأة علي شجرة النيم يقبلان الفناجين ويتبادلان القصص وحكاوي القرية ومشاكل نفيسة مع زوجها السكاري ويعودان الي الحب مرة أخرى ...
جاد السيد :

- الحُب شيء مقدس ، فالحب الذي جاء في كتب التاريخ على هيئة قيس وليلي وعنتر وعبله لا أتهمه بالفقر، لكن الحُب وفق منطقي لا يُكتب لا يُدون في شكل قصاصات وقصائد يستطيع أيّ مراهق صياغتها في ورقة عذراء تئن تحت وطأة قلم لا يصدّق في أحاسيسه ومشاعره ، نحن نعشق أنثيات الأشياء يا سيدتي ... ليست هناك منعطفات تقودنا الي النهاية التي لا نعرف هل بدأت أم لا ، فالحُب يا نفيسة هو مرحلة من الشاعرية وهيجان الأحاسيس وفقدان الوعي وووووأشياء لا تقال، الحُب قاتل

نفيسة :

- الحُب ال بجنن الله يستر

حليمة تحزم حقائبها الآن قاصدة الخرطوم وفي مخيلتها أن العاصمة تماماً كما رأتها من خلف شاشة منزل حاج احمد

حيث الإنارة لا تنطفيء ، حيث الحياة ترقص علي الأرصفة ، وبائع الورود
ينثر الياسمين علي رؤوس المارة ، أرادت أن تلتقي ربما لآخر مرة بعشيقها
جاد الذي حاك من بنيات افكاره كلمات وداع تليق بسيادتها او هكذا
خيل له ، ها هو جاد ...

حليمة :

- سأذهب الي الخرطوم للإلتحاق بالجامعة

جاد :

- لا بأس حافظي علي نفسك

- سأشتاقك يا جاد

- وأنا ايضاً فالشوق نتاج عرضي للفراق ، ثم دسّ في يدها رزمة نقود
وحفنة من الوصايا وذهب ، العشاق لا يتحدثون كثيراً لأنهم لن
يفلحوا في إيجاد عبارات جميلة عند اللقاء .

إنتهي اللقاء الأخير ... ورحلت

بعد نوبة بكاء حادة نامت حليمة علي مقعدها ولم تصحو إلا عندما توقفوا
في تلك المدينة المرسومة علي جبين رجل المرور الواقف بالقرب من
شباكها ، ترحلت من الباص واخذت حقيبتها وبدأت تستفسر عن مكان
وجودها الآن

أحدهم :

- الي أين يا أختاه ؟

نفيسة ببراءة :

- الخرطوم

أحدهم بسخرية :

- هذه هي الخرطوم

العمارات العالية وزحمة الخلائق , آلاف السيارات والشمس مشعلة فوق رؤوس الفقراء والهاربون من قراهم الى مدن أوسع _ حليلة تنظر الي كل شيء , الي البائعين المتجولين وهم يصرخون الي المتسولين وأنوار الأماكن الزجاجية ... إلخ

وفي أوج دهشتها العارمة سألت نفسها أين سأجد من يوصلني الي الجامعة في هذه القرية الكبيرة جداً , فتحت مفكرة الوصايا وقررت أن تسأل احد السائقين

حليلة :

- مرحبا سيدي أنا جديدة هنا أريد منك أن توصلني الي جامعة السودان

السائق :

- حسنا تفضلي

- شكراً

حليلة تدهش مرة أخرى لرؤية الجامعة فقد دخلت من أوسع الابواب بأضيق الإمكانيات والمعرفة , تسمرت في مكانها وهي تري الجلسات المختلطة والقهقهات التي تعلو كل حين واخر , وتلك الملابس الضيقة العارية من أماكن شتي ، قالت في نفسها , ما هذا؟ وهل هناك من هو مسؤول عن هذه الفوضى ! أليست المرأة عورة !

توالت الأيام وحليلة تتعرف كل يوم علي شيء جديد ومنظر جديد وتتفاجأ مراراً

بعد ثلاثة أشهر ...

حليمة لا ترد علي رسائل جاد السيد ، لا تأتي في مواعيدها الي الجامعة حليمة مالت الي تلك المدينة , لقد سحرتها بيوت الأشباح والقهقهات فإرتدت ما هو أبشع ، عرفوا أنها من أصل البوادي والقري من معالم لهجتها وبنيتها اللغوية الركيكة وهي تحاول أن تُقلد رصيفاتها , حتي انها لم تعد معجبة بإسم حليمة فإستبدلته بملاذ الذي يبدو أنه اكثر رقة في نظرها ، وعندما يجتمع دلع الحاضر بقسوة الماضي تصبح الاسماء هكذا :

ملاذ البلولة فضل الجاه عوج الدرب

خدعوها ... خدعوها

خدعوا ملاذ او بالأدق حليمة القديمة في ثوب ملاذ الجديد , لا خير في تلك المُدن المطلية ، وعندما تهب رياح المصائب تقلع الاشياء من جزورها , ملاذ لا تفارق الفتية حتي أصبحت دمية تتقاذفها الايادي وتلعب بها لعبة الإختباء

بعد ثلاثة أشهر أُخري ...

وجاد السيد الفتى العاشق يسترسل في احلامه تلك الجميلة التي غادرت جغرافيا القرية واصبح ، يعيش علي ذكرياتها مشاطراً آلامه مع شقيقته نفيسة وقهوته التي باتت لا تعني له الكثير دون ، مداعبة الصباح البهيّ علي صوت محبوبته حليمة الحاضرة بداخله الغائبة في مدن السواد ، وفي قلبه تتعدد المخاوف ، تتعدد الكوابيس التي دائماً ما تتنبأ بالكوارث وتلك الاسئلة التي تلتحف اجوبتها العدم ، يسأل شقيقته :

– هل يمكن أن تنساني ؟ أن تضرب بمشاعري عرض الحائض غير آبهة بذاك القروي الذي رفض حضارات المدن ، المغلفة بالنفاق والوساوس ؟

نفيسة مشفقة :

- لا تفترض وتصدق ما افترضت فالواقع شيء آخر يا أخي
لكن جاد يريد الحقيقة وليس المواساة.
فأخذ يردد :

سألت عنك

قطاطي السكة والزمن العصيب

سألت عنك

صوت قطارات الرجوع

الألمت ظهر القضيب

سألت عنك

كل محطات المدائن الحلوة

وأنغام الوداع

المارقة من لحن المغيب

سألت عنك

عرافة الشهد الودر

السارحة في صيِّ البوادي

ونايا في إيدها اليمين

تعزف تخفف كم سهادي

حليمة , ملاذ لايبهم

هي حُبلي الآن

في مدينة أجهضت كل شيء فباتت متفرغة لوضع مكونات في أحشاء حليلة ، وفعلتها ، لن تُصدق ، هي أيضاً لم تُصدق لكن! هذه هي الحقيقة المؤلمة القاسية أكثر ، ربما كانت تعلم هذه النهاية وربما لا حليلة تبكي ...

حليلة تحاول أن تعود حليلة القروية دون طفل دون ملاذ التي سترت خلفها آلاف الأشياء فعرتها غابات النخيل بمبعثرة شرفها علي حدائق المقرن او ربما الحديقة الدولية لا يهم ، حليلة الآن تصنع في مخيلتها غشاء جديد لبقارتها التي مذقتها الخرطوم ، التي عبثت بها أمواج النيل وفي ليلة رأس السنة وتتعدد الليالي ، وفي ذاكرتها تري البلولة وهو يسير متبخراً في شوارع القرية وتتخيل وقع الصدمة في الوقت ذاته.

يا لسذاجة القدر ، يا لتفاهة حليلة والخرطوم ، وقناطير من الأسافي احملها عبر قلبي الي جاد السيد

حليلة في محاولة إنتحار فاشلة لم تقلح ولم تحظي بالموت ، الموت الذي رفض أن يكون عقابها في هذا التوقيت بالذات رفض أن يحسم فوضي الإنتهاكات المتوالية ، أنقذها الطبيب دون ذاك الطفل الذي لم يكتمل والخطيئة في مكانها

ذهبوا بها الي القرية ...

فاقت حليلة من غيبوبتها التي تمت أن لا تفيق منه ، وفي فؤادها اصناف الإعتذارات وباقات من الندم قدمته الي نفسها أولاً

سألت :

- أين أبي ؟

لكن غيبوبتها كانت طويلة جداً لدرجة انها لم تدعها تعتذر لوالدها وهو
يلفظ انفاسه الاخيرة

أردفت :

- أين جاد السيد؟

تزامناً مع دخول طفلاً ما الي القطية وهو يلهث

سأله الحضور :

- ماذا بك؟

الطفل :

- لقد هربت من جاد السيد المجنون

أخذت حليلة تسترق النظر من ثقوب القطية بعينان مدمعتان لتجد جاد
السيد مدثراً بالقمامة ويضحك بحرقه وألم في آن واحد وهو يردد :

كضايين , كلكم كضايين , كضايب



امرأة من جيرة تاجانيقا

في فضاء ماتالا إلتقينا وتشاخصت أعيننا ... كانت تتكأ على رصيف المقهي دون قهوة ، كنت أحمل قهوتي باحثاً عن رصيف أتكأ فيه .

أخذت تتفحص ملامحي وكأنها تبحث عنيّ او بالأدق عن شخصاً آخر يشبهني تماماً , تأكدت أخيراً أنني لست هو فبدأت الخيبة تكسوها من جديد ، أحسست وأنا أراقبها ملياً بأنها تخبأ شيء ما في جُعبتها لأن وجهها المكسد بالندوب وآثار الحمي مروعاً يفضح كل شيء ، بعثت بكوب قهوة آخر وجلست بقربها يسبقني الترحاب

- مرحبا سيدتي أنا بينم رات خام

إستدارت نحوي بعينيها الواسعتين والتي خيل لي بأنهما تعانقاني ثم أضافت:

- مرحبا سيدي أنا روزبير

تبين لي من نبرة صوتها أنها مثقلة بكميات هائلة من الاحزان تأتي أن تتدفق لتُشعرها بالإرتياح , فسألته بلباقة وتطفل في آن واحد ,:

- ماذا بك ؟ أراك حزينة للغاية تحدث إليّ ربما يمكنني مساعدتك

إرتشفت جرعة من قهوتها عسي أن تساعدها في ترتيب أفكارها كي تتخذ قرار ما إذا كانت ستخبرني أم لا ما إذا كانت ستفتح قلبها لهذا الغريب المتطفل أم لا ، قالت لي بأنها من مدينة سادتها الحروب , حروب لا تعرف فيها العدو من الصديق فقدت فيه كل شيء تقريباً , والدها , زوجها , طفلتها وحتى ذاك الأخير , شرفها ، لم تحاول الهروب من قدرها السخيف لكن

التوقيت ليس لها , أخذتها حيث شاءت حاملة معها هول بلاد لم تأذن
السموات أن تقام الحرب فيها وهطت بها هنا في مدينة الأنوار والمقاهي
النيلية غير أبهة بأين وكيف ستعيش . لقد أيقظت في آلاف الأوجاع وللحظة
جعلتني أعيش المأساة وكأنني من مدينتها تلك

- وأين تقطنين الآن يا روزبير ؟

- وهل يُسأل المشرد عن وطن

طأطأت رأسي باحثاً عن كلمات تخفف عنها عني ففوجئت ببطنها المنتفخ ,
يبدو أنه طفل في الشهر التاسع ,, يا إلهي

- هل تزوجت مرة أخرى ؟

- لا ولن أفعلها

- إذأ

- فهمت ما ترمي إليه , هذه الحرب يا سيدي رفضت أن تفارقني فجاءت
بصورة أخرى ومكثت في أحشائي لا تريدني أن أنسي او هكذا خيل
لي .

أه كم كانت الحياة قاسية معك , لقد زج بي فضولي في متاهة لا مفر
منها ولا هرب شعرت بأني جزء من الأزمة من الحصار من الحرب التي
طالت روزبير ومدينتها , لم أكن أعلم بأن الاوطان ايضاً تحبل
أليس الأم وطن ؟

كلانا دخل في نوبة بكاء عالية وكل من بالمقهي يتسائل ما خطبهما ,
وكلانا غير مهتم بمن هم في المقهي

روزبير تُدلق قهوتها علي الرصيف صارخة القهوة مره لكن المرارة ليست في
قهوتها المرارة في تلك الجروح التي نُبشت توأ في ذاك الطفل ذو الأربعون
أباً وفي تلك المدينة التي أحرقتها البيارق المنافحة

كانت تردد:

لا تسألوني كم أعاني
بل إسألوا ذاك الوطن
كم كان يشهد من نفاق

- روزبير ماذا تعملين الآن؟
- أبيع الكوايس وأشترىها تماماً مثلهم , او أيّ شيء آخر يصلح للموت او يشبهه لا غير ، أرجوك سيدي لا تندهش فالحرب تفعل كل شيء تقتل وتغتصب وتسلب الحرب تفعل كل ما تتوقعه وما لا تتوقعه
- آه , آه يا روزبير الأرض ليست عادلة او أن العدالة مؤجلة الى حياة اخري ، إصمدي ... إصمدي
- كيف والى متي؟ هل أذهب الى الوطن أم أنتظره ليأتي إليّ هارباً مخدوشاً منهكاً محترقاً يسقط في أحضاني ليهدأ اللهب او لنشتعل معاً .

قفز الى ذهني بيت من قصيدة يقول (إشتقت للوطن البسائل ولسة ما لاقى الإجابة) تزامناً مع دهشتي , أجل لقد أدهشتني روزبير أنثي شرسة جداً صلبة رغم كل هذه المعاناة والرغبة جريئة جداً في قراراتها ومشاعرها وكل شيء حتى في حديثها معي أنا الغريب كانت بمثابة صفة للواقع

- سيدي أشعر بألم شديد , أظن أنني سألد طفلي الآن ساعدني وبدأت تصرخ ولحسن الحظ أن من بين رواد المقهي طيبة وإن لم يكن إختصاصها التوليد تعرف ماذا تفعل علي الأقل

روزبير تتمخض الآن ...

الوطن يتألم الآن ...

روزبير ستنجب طفلها ذو الأربعون أباً الآن ... روزبير ممددة علي الرصيف
نم نقلها الى المستشفى بعد أن أنجبت طفلها مباشرة وأخذ الطفل الى
الحضانة لكن! لم تنتظر روزبير لتراه مرة أخرى , لم تكن مستعدة او
ربما القدر لم يسمح لها

ماتت روزبير

ماتت روزبير ورحلت الى حياة أخرى

لم أكن أعلم بأن مخلفات الحرب يمكن أن تقتل أحداً في المستقبل , لم
أكن أدري بأن الأوطان ايضاً تموت هكذا دون مجد , لم أكن أعلم بأن
روزبير والحرب والمعاناة سيتشكلون في هيئة هذا الطفل الأسمر

مضي عام ...

وتبنيت الطفل , الذي قلب حياتي رأساً علي عقب إبن السيدة روزبير كانت
أمي سعيدة جداً وأنا ايضاً , متأثرين جداً لما حدث لروزبير
سألته تري من يشبه هذ الطفل من الأربعون أباً يا أمي ؟

لم تُجيبني او ربما من الوقاحة أن اسأل مثل هذه الأسئلة مع أنني كنت
عفوياً في سؤالي , وفي المنام حلمت بروزبير جالسة بالقرب مني قائلة:

- هذا الطفل يشبه الوطن الجريح , يشبه الوطن الغارق في الدماء
عليك أن تُسميه الكونغو ! هل تعدني ؟
- أعدك سيدتي

سألت نفسي حينها _ ماذا سأقول له عندما يكبر ؟

هل سأخبره الحقيقة أم اخفيها , أخفي عنه حقيقة طاغ اخذ والدته ووطنه
وكل شيء جميل يخصه , يا إلهي , كم يصعب عليّ مواجهة هذا الطفل في
مرحلة ما , يبدو أن ضعفي لن يمكنني من تلك اللحظة التي تختبأ في غدٍ ما

توالت الايام والليالي والكونغو يكبر شيئاً فشيئاً، وبين حين واخر يتساءل عن مصاب أمه، عن أين هي وكيف؟ وكلما مرت السنين كانت نبرته اكثر حده وإلحاحه أشد فتكأ الى حدٍ يجعلني ارغب في مصارحته، عذمت حينها أن ألتقي بالعصامية روزبير لتقول لي : هل اخبره ام لا؟

لكن روزبير لم تأتي في مئات المنامات التي كنت انتظرها لتوقظني، لم تأتي او ربما كانت تقصد أن تضعني في تلك الدوامة المتعبة، وأمي لاتكف عن البكاء عند رؤيتي كئيباً حائراً مُرعباً من مواجهة الكونغو وذات مساء خريفي ممطر؛ مساء أشبه بذاك المساء الذي التقيت فيه بروزبير غمرتني قوه كبيرة تكفي لدلق الحقيقة على مسامع طفلي، رسمت روزبير على الأرض ثم أردفت:

- هذه والدتك يا الكونغو

- كيف؟

- في يوماً ما خرجت من العمل غاضباً من كل شيءٍ _ العمل، الركض نحو السراب والإحساس بالوحدة وغيره، أوقفت سيارتي بالقرب من مقهى على الطريق لأحتسي كوباً وأرتب ما بعثره انفعالي اللامبرر من أشياء تخصني، التقيت بامرأة سمراء يبدو عليها علامات التعب وفي أحشاءها طفل، تحدثنا عن مصابها وتناولنا قهوتنا لكنها كانت تحاول أن تنجب ذاك الطفل أو ربما هو من أصر أن يخرج، أنجبت على ذاك الرصيف ونقلت إلى مستشفى مجاور لكنها لم تنتظر لترى طفلها، لقد ماتت يا بني

- إذاً أنا ذاك الطفل أليس كذلك؟

- اجل يا بني

- حسنا ولماذا أطلقت عليّ الكونغو؟

هو بعد أن سمح لعيناه بأن تدمع :

- هي من أسمتك يا بني, ذات حُلم
- لا تبكي يا أبتني, لا تبكي لأنني لا زلت احبك

تعانقنا ثم أردف الابن :

- أُمي كانت رائعة وحظيت بأب رائع أيضاً وثمة ما هو أروع
- ما هو
- الكونغو في انجولا



لصوص أفانوفا

قبل 2700 عام قبل الميلاد او اكثر

مملكة افانوفا

رابوري مقر المملكة, مدينة شيدها الروحانيون القداما بأمر من الملك سيمالو الثاني, المدينة الذي أُطلق عليها مدينة الرب, تقول الاسطورة بأنها مطلية بجلود السحرة الخالدين والحاميين, يتوسطها قصرًا ملكي ضخم مقسم الى اجنحة لا يعلم احداً عددها ولا سكانها, المعلومون فقط هم الخدم والجنون المأسورين والسحرة والمتحولون اصحاب الافلاك الستة وآخرون.

قائد الحرس الملكي فاربوريس او الإبن العاق كما يحلو لجيوش افانوفا, يشعل محرقة الظلامية في وادي الموتى مقدماً بعض الاطفال قرباناً لابناء البن الاسود وفق عهد الاسلاف, حفاظاً على العرش والارض من الهاوناخام والتي تعني اللعنة بلغة الجن, لعنة تُدعي ميناو وهي السر الأزلي المنقوش في مخطوطة الأولين من كل اصناف مخلوقات الارض, لعنة ممتدة منذ اول مجزرة في كوكب الارض بين الجنون من جهة والجن والبن من جهة اخري.

حامي المملكة وحامل الصولجان (هيهيهو نامولا) ينذر الملك وقائد الجيش بخطر قادم, حرب لا تصدولا ترد, حرب اللصوص العائدين من اجل المخطوطة والذهب والنساء السمراوات, وروح الملك سيمالو الخامس وريث العرش الرابوري الغزو عند الحامي ليس مجرة تنبؤ او إحراز, لانه يملك قوه ضاربة من السحر وخدام اللهب, خُدام آلهة النار ساكني كهف المجاسي

قال الملك بعد أن إستدار :

- من هم ايها الحامي ؟ من الذي سيشن حرباً علينا؟

هيهيهو بصوت جهور :

- الغوغائيون يا مولاي, يريدون أن تحل بنا اللعنة يريدون إخفاء
افانوفا من الارض

ميناو, ميناو, ميناو

الملك وعلامات الوجل تبدو جليلة على وجهه :

- يا للهول, إذهب ايها الحامي لتسطلع الامر جيداً وخذ معك قائد
الجيش فاروريوس

الحامي بعد أنحاءة لجلالته :

- أمرك يا مولاي

الغوغائيون مجموعة تمردت على ملك افانوفا, تتألف من كل انواع
المخلوقات, الجنون والشياطين والسحرة وعلى رأسهم رامالو شقيق الملك
الذي نصب نفسه رباً للشر بمساعدة الروحانيون البحارة والقوادين, رامالو
المنفي من قبل المملكة وفق التقاليد والاعراف , قاتل الجد الاكبر للعائلة
الملكية, بعد أن تبرأ منه نتيجة افعاله الشنيعة وإفتعال حروب مع قوة
مجهولة يُطلق عليها حراس افانوفا الخالدين الناممبا , غادر الحامي وقائد
الجيش وبعض الجنود قاصدين وادي الموتى, وما أن وصلوا بوابة الظلامية
هاجمهم مجهولون عرفوا فيما بعد بأنهم الشامراخ وهي كتيبة من ضمن
كتائب الغوغائيون, بنبالهم وعصيهم ممتطين زئاب تُدعي زئاب الجحيم,
يخرج من افواهم لهيباً مستعر, سحقوا جميع الجنود عدا الحامي والقائد
الجريح إستطاع هيهيهو نامولا أن يتغلب عليهم بواسطة الـ(بوند) او
بالأدق السحر الإليمنادي, إنهار مباشرة بعد أن نفذت قواه تاركاً فاروريوس
يقاتل ما تبقى من اشباح بنصله الأثري الشيطاني, قائد شرس لا يتواني عن

قضم جيد الاعداء بسيفه الغريب ، عادا على بساط سحري الى قصر المملكة, بعد أن خسرا مجموعة فذة من جُند المملكة, لقد تضخم الامر الآن ولن يمرر الغوغائيون هذا الحدث او يصمتون سيردون الصاع بأكثر من صاعين ، صرخ رامالو حتى إهتزت الارض وعرش افانوفا ، صرخة كفيلة بأن تقتلع غابة كثيفة من جزورها, صفع احدهم بالقرب منه ثم اضاف:

- زيكاكا كوالا, خانوط بو شاروط, كثاخا رينافا

تجمعت كل القوات الغوغائية في ساحة شيرا بوادي الموتى, حتى ارواح الموتى نبشت قبورها وإصطفت قبالة الاخرين, ملائمة آلهة الشر ايضاً اخذت مكانها بالقرب من العظيم رامالو, السحرة وكُتاب المخطوطات السحرية, البرابرة وأكلي لحوم البشر شرعوا في سن انيابهم اصدر رامالو صوتاً غريب ثم اردف:

- اليوم نهاية افانوفا وملكها ومملوكها, أن الأوان لنحظي بأرضنا المسلوب من قبل السيمالويون, اليوم سنهدم مدينة الرب ونأخذ مخطوطة الاولين, سنحرق كل ما جاد به الطريق, ثم صاح

ضاجيري ماجيري, لاليزا هيري

الجنود مرددين:

- ضاجيري ماجيري, لاليزا هيري

فاجو نجل قائد الجيش فاروريوس يُحب ابنة ممثل البن في البساط الملكي, الاميرة كيسلين عشيقة الملك ذات الصدر البارز ومؤخرتها المنتفخة كوسادة العرش القطنية, فكرة الإستمناء تقفز الى ذهنه كلما مرت بجواره وفي داخله يدعوها بعاهرة العرش, سمع صراخها اكثر من مره وهي تضاجع صاحب البطن المترهلة, وما زال يعتقد بأنها تصرخ جراء ضخامته

البدنية واردافه الكبيرة لا من ضخامة شيء، الى ما حد جعله مقتنعاً بفكرة انها ما زالت تحتفظ بغشاء بكارتها، لكنه ليس جريئاً بما يكفي لقطف ثمرة من الحديقة الملكية

قالت له ذات مرة وهي تطبع قُبله عابره على خده :

- سأواصل لعبي مع الملك الى أن تكون رجلاً بما يكفي لتفض بكارتي، اتمني أن لا تكون مثل سيدك

فكرة قتل الملك تبدو منطقية في مخيلة فاجو على الاقل ليحظي بحبيبته، لكن نقض العهد الذي أبرمه اسلافه القادة امرأً قد يؤدي لطامة كبري، قد يفنى قبل مضاجعة كيسلين الغوغائيون يتجهون صوب افانوفا ...

يعبرون بوابة الظلامية وفي مقدمتهم الزعيم رامالو ليأخذوا الدعم من آلهة الشمس مروراً بمقبرة المتحولون اصحاب الافلاك الستة، شيّدوا معسكرهم على بُعد ستون ميلاً من حصون افانوفا، ارسلوا كتيبة من السحرة الذين يمتطون زئاب الجحيم لتقصي الاحوال والطرق تحسباً لأية مكيدة، وإيماناً بقدرات الحامي العنيد هيهيهو الساحر الساهر.

ارسلت افانوفا جيشاً جبار بقيادة الطاغوط المخنث الى غابة كثيفة بالقرب من المدينة بالإضافة الى سكان كواكب الارض الستة، تحت إمرة الحامي دليل الظلام ومستنير العرش، تنبأ الغوغائيون بهذه الخطة، (البوند) كان حاضراً وكافياً لمعرفة ما يخبأه المستقبل، لمعرفة ما سيفعله فاريوريس في اللحظات الاخيرة

كتيبة من حراس افانوفا الخالدين النامببا وبعض المتحولون اصحاب الافلاك بقيت داخل الحصن بأمر من الملك، الاميرات السمرارات ومجلس النواب نزلوا الى الجزء السفلي من القصر، الملكة ايضاً تملك غرفة محاطة بالحامين المبتدئين وبعض صعاليك السحر، أيقن الملك بأنها النهاية

الحتمية, نهاية لا بد من أن تأتي لكن ليس في هذا الوقت وعن طريق ذاك العاصي رامالو إله الشر , وفافاجو يبحث عن الاميرة كيسلين بين تلك الاجساد العارية المختبأه داخل القبو الصخري, يبحث عنها ربما ليسرق قُبلة او عناق طفولي يعيد ترتيب الاشياء في ظل تلك الفوضي العارمة

هجم الغوغائيون مملكة الرب من الخلف, معركة أشبه بتلك التي حسمت صراع الجنون مع سكان الارض القداما قبل الإنسان, حرب الشر والشر, حرب من اجل

عرش رابوريا عاصمة الفجور والرجس, حتي الاشباح ساهمت في غزو افانوفا بكل ما تملك من وحشية

شياطين الغوغائي يهتفون : (ميناو , ميناو , ميناو)

شبح الهزيمة يعبث بمخيلة فاروريوس وهو يري جنود افانوفا يتساقطون, يري دمائهم تتطاير في الفراغ راسمة مملكة جديدة أهدت تاجها لرامالو, سمع ضحكته المجلجلة وهو يغرز سيفه في صدر احد وزراء الملك

ثم صرخ : هياهو ساميتا, بلاطا تاخا

على شجرة ليست ببعيدة لمح حامي المملكة هيهيهو نامولا وقد تجلط دمه, معلقاً من كاحليه وهو ينزف من ثقب ما في رأسه, أشعل احدهم النار في تلك الشجرة ليختفي الحامي او ربما ذهب روحه الى خاتم إله الشر كما تنص المخطوطة, أسر الملك وقائد الجيش على أن يقتلا في يوم مقدس, قتلوا كل من في المملكة من جن وإنس وشياطين الارض والجن والبن بل وحتى كتيبة النامبا الخالدة, إلا فافاجو والاميرة كيسلين هربا نحو جزر اللاليل بعد لعبة مطاردة قاسية مع جيش الغوغائيون, هربا ولكن الى متى ؟

صاح رامالو بعد وضع التاج على رأسه: ميناو , ميناو , ميناو

لقد إنتصرنا يا ابناء وادي الموت, لقد إنتصرنا

- ضاجيري ماجيري, لاليزا هيري

الجنود مرددين :

- ضاجيري ماجيري, لاليزا هيري

بعد مائة عام ...

جاء اليوم المقدس, يوم أن طُرد رامالو إله الشر من مملكة افانوفا, يوم أن تسلم شقيقه مقاليد الامور, يوم أن أسس جبهة الغوغائيون, حكم على الملك المخلوع وقائد جيشه بالقتل على أن يكون التنفيذ بسيف ملكي, نصل الاجداد الموروث على مر السنين والاكوان الستة

العاشقان يتخذان جزر اللاليلامخبأ سري لمملكتهمما الجديدة, مملكة الحب الخالدة الحب الذي عانى كثيراً في حبو الزمانوصراعه مع الشر, الحب الذي إعتبره القداما قوى سحرية ماورائية تجثو على صدر المخلوقات ناسجة حلقة ضعف تمكن العدو من إستغلالها, كيسلين تحاول كبح الغضب الذي إعتري فافاجو جراء ما حدث لقومه قائلة :

كفاك تهوراً, ما أجمل أن نختلي بالارض وحدنا, قليل من المخلوقات تحظي بهكذا نهاية, دع الماضي وعش الحاضر فافاجو

فافاجو والدموع تنهمر :

- ليس لي سواك في ذاك الماضي يا كيسلين لكن ما اصاب افانوفا يرهقني, شخص ما بداخلي ينعطني, جزء مني يرغب في الثأر يرغب في أن يعود ليلقن رامالو درساً

كيسلين بعد أن عانقته مؤازرة :

- كف عن هذا الهراء, عودتك لن تعيد الاموات وستكون بمثابة إنتحار
لا اكثر, والشيء الأهم أنك لا تملك القوة الكافية لمواجهة إله الشر

هو بعد إبتسامة تنم عن الرضا :

- حسناً, حسناً

حكم الغوغائيون مملكة افانوفا كما تنبأ الآباء الروحانيون, شيدوا مجداً
ثوري ليُعلموا ابناء المستقبل معنى أن تقف ضد الظلم, معني أن تقول
بملاء فمك (لا) حتي وأن لم يتغير الحال ف ليتغير الجلالد, من المؤسف أن
هذا ما سيقوله شعب ما في غياهب الغد, شعباً سيستشهد من اجل اللا
شيء, شعباً سيكون إمتداداً للغوغائيون في القرن الثاني والعشرون, شعباً
سيقلد مخلوقات عاشت قبل 2700 عام قبل الميلاد

سيصرخ طاغوط اخر في ذاك الشعب :

- ميناو , ميناو , ميناو



بكاء العصافير

بثياب متسخة ولحية لم تطالها شفرة حلاقة منذ أشهر طويلة جداً، سحب نفسه من أسفل العربة المصلوبة في منتصف الورشة متجهاً نحو محرك ضخيم يقبع محاذياً للمدخل، جلس وهو يشير لتلميذه شرارة نحو حقيبة المعدات ليناوله مفك نجمة ومفتاح عشرة، هو هكذا يتحدث كثيراً حتى عندما يصغي لجهاز الراديو المعلق على السقف، يدندن ويهذى ويشعل بعض لفافات التبغ المشبعة بزيت الراجع، رفع رأسه على صوت طفليه الصغيران وهما يرسلان تحية الصباح التي دائماً ما ينتظرها، ربما هي فقط من تستدعي الحياة وتُشعره بالحب، هي ما تجعل للصباح مذاق بهي، إبتسامة إنتشاء تُطبع على شفثيه المتسختين اللامعتين وهو يسترجع صوتهما في ذاكرته المتسرعة متبادلاً تحيتهما، تحاول يمناه أن تعبث داخل جيب أبروله الأزرق باحثة عن قطع نقدية خبأها مساءً للصغار، وجود لهما بما يكفي وفي مخيلته طعم القبلة التي تطبعها سمر على خده المكسو بالشعر بعد كل لحظة وداع مؤقتة، ترقبهما إلى أن ذابا وسط الزحام، عاد بعدها لجثة المحرك الألماني الذي يحتضن الأرض، حرص وفتاه على تنظيفها وتجفيفها وتجميعها مرة أخرى إلا أنها رفضت أن تمتثل لعامل بسيط وصبي ساقته خطاه التعب لمدينة لا تشبه والدته كما إعتقد، بعثرا ذلك المحرك مجدداً، بحث جيداً، لعن الخواجي صانع المحرك أكثر من مرة لعن يده اللتان بدأتا بالارتجاف، إنه مرض السكر الكافر، نفث سيجارتان ثلاثة سجارات، توسط أشلاء المحرك بعد أن عبأ جوفه بمنقوع السُترني ليخفف من ضربات الشمس ونوبات السكر حسب الأسطورة السائدة هنا في أرض تتعدد فيها الأساطير، تأمل بدقة شكل ما من أشكال

المحرك المخروطي , ضحك , ضحك بصوت عالٍ جداً صارخاً لفتاه بعد أن أصلح العطب مضيفاً:

- الخواجي دقس, تعال تعال جمع الممكنة

تمدد بمحاذاته شيخاً منتصراً, وكأنه فرغ لتوه من إكتشاف مصلٍ للمس أو عقاراً للهلوسة, أشعل سجارة أخرى متربحاً شرارة وهو يجمع الأشلاء بمهارة فائقة قفزت سمر على ظهره وهو يسترق النظر إلى اداء تلميذه, طوقت يداها الصغيرتين الناعمتين حول خصره ضاحكة ببراءة, إحدى خصلها عبرت نحو وجهه, هي طقوس غريبة جميلة يقيمانها كل مساء, طقوس حب يخصصهما, هرب بها نحو المنزل, أخذ يدور بها, طاردهما زوجته ست النساء, سمر تصدر ضجيجاً عارماً, هي هكذا عندما تصل أقصى لحظات الفرح, أقصى طقوس العشق, تركها هناك عائداً إلى العمل بعد وعداً تعود على قطعه كل مساء الحلويات

إتكأ على كرسي قديم, أرسل مخيلته بعيداً حيث لن يقاسمه أحد تلك الحروب التي على كل من في الأرض أن يخوضها وحده, سأل نفسه حينها

- كيف ستكون الحياة إن فاضت الروح إلى بارئها, كيف ستُعيد ست النساء نفسها وأطفالها, كيف يا تُرى؟ , أخاف أن تأكلهم العتمة والكلاب الضالة, ربما كان من الخطأ أن يتجرأ عجوزاً مثلي على الزواج, وربما أنني ورثت هذا الخطأ أباً عن جد, يا إلهي

نادى فتاه بنبرة حزن عميقة ومقلتان مليئتان بدمع خفيف ثقيل, ربت على كتفه وكأنه يفترض في نفسه أن شرارة هو البديل

شرارة مدفوعاً بفضول التلميذ الفطن,:

- لماذا تبكي يا معلم

- لا عليك يا بني, جميعنا في وقت ما نحتاج لأن نبكي, حتى العصافير تحتاج ذلك

- هل هناك ما تود أن تُخبرني به

- ربما, سأخبرك إن أحتجت ذلك

أغلقا المحل قاصدان المنزل بعد أن مرا على مجاهد بائع الحلويات, والذي كان يُلقب لسبب ما مجاهد شيخ لوط, لم تبارح مخيلة شرارة دموع معلمه ووهنه تمنى لو أنه كبير بما يكفي ليستطيع مواساته, ولجا المنزل _ هرولت سمر كالعادة صوب والدها وصوب وصاياها, حملها بكل حب على كتفيه راجلاً بها نحو سرير يتوسط المنزل بعد أن ألقى التحية على زوجته وطفله ياسر عابثاً شعر رأسه, طفله الذي يدعوه دائماً أخي, ربما لفقدانه إحساس الأخوه , صلى العشاء برفقة شرارة وإنسحب كلٍ منهما إلى فراشة بهمومهم, شرارة الصغير وهو ينقب عقله الصغير باحثاً عن طريقة ما تجعله صديقاً لمعلمه ليقاسمه حزنه وحاج الغالي وهو ينهش نفسه خوفاً على الصغار من دونه .

أشرقت الشمس, غيوم جميلة نصبتها السماء على ذاتها, غيوم تتحرك على هيئة أسراب كما الطيور الراحلة, عصفور مطلي بألوان عدة بدأ يغني وكأن هذا يوم ميلاده, سمر أول من تستيقظ وبدورها توقظ الآخرين, تأتي والدها ليرتب خصلات شعرها الليلي الأنيق, أخذت مصروفها هذه المرة من البيت مباشرة, طبعت قبلة دافئة على وجهه ورحلت , أستيقظ الجميع, أقاموا طقوس الصباح ككل مخلوقات الأرض, ملأت ست النساء حافظة الأكل خاصة زوجها ثم تفرغت لمنزلها المتواضع, خرجا كالعادة لكسب رزقهما, يتبادلان الدعابات, يضحكان, تزامناً مع صراخ أحدهم :

- يا حاج الغالي, ياااا حاج الغااااالي

- مالك, مالك في شنو يا ولدي

- بتك سمر
- مالها, مالها
- ضربتها عربية

صدمة قوية إعترته, صدمة أخلت بتوازنه المختل منذ البداية, شعر بأن قلبه توقف بل جميع قلوبه التي تعلقت بسمر توقفت للتو, هرول ومن خلفه شرارة حيث مكان الفاجعة, سمر قطعة لحم حمراء مفترشة ذلك الرصيف القاسي, بكامل برائتها وزهوها الطفولي, بحقيبتها المدرسية وزمزميتها الصفراء, جلس على ركبتيه الهزيلتين, دموع دافئة تخللت خداه حتى أسفل شفتاه المرتجفتين, عانقها بأبوه مفرطة وصرخات إختصر فيها كل ألم إختزنه, ست النساء دخلت في نوبة بكاء عالية, بكت حتى غادرها صوتها الحزين, ماتت سمر, مات كل شئ جميل كانا يعيشان لأجله, وكأن السماء إختصرت معاناة البؤساء فيهما, سمر آخر الأسباب التي تدفع حاج الغالي للتنفس, للضحك, للفرح وللبيكاء أيضاً

شرارة ينفجر أيضاً ليبكي كل لحظات الفقد الطويل, ليبكيهم جميعاً, والده ووالدته وسمر, هو يبكي تلك الخمسة عشر عاماً الماضية الآن, ربما كان في إنتظار فرصة ما ليبكي لكن ليست فرصة تأخذ سمر للأبد, تذكر حديث معلمه ذلك اليوم:

- جميعنا في وقت ما نحتاج لأن نبكي, حتى العصافير تحتاج ذلك!

شعور سئ ينتابك وأنت تودع ذاتك التي تعرفها جيداً, إستفاق حاج الغالي من غيبوبته وملامح الحزن تكسو تجاعيده الشائخة, تناول بيسراه دفتر رسم صغير من على منضدة خشبية تعود لأكثر من ثلاثون عاماً, تنقل بعيناه الجاحظتين, تنقل بسبابته المرتجفة بين الرسومات الفوضوية وأشكال الخطوط الملتوية الملونة, رسمت سمر ماضيها وحاضرها ومستقبلها, دموع عابرة تمتزج مع خطوط قلم الرصاص المحشوة بحنان

عميق داخل الصفحات, شرارة بلغة حزينة يخبر معلمه برغبته في الذهاب إلى الورشة حيث أن الفقراء لا يتوقفون عن العمل لا يتوقفون عن الركض الطويل المستمر, هم هكذا دائماً عند المرض والحرب يدقون أبواب العدم الموصد بالحاح يدفعه الإحتياج, لم يعيره حاج الغالي إهتمام أو ربما بات الأمر لا يخصه, بخطى متباطئة رحل شرارة صوب الورشة معتبراً صمت معلمه قبول كما هو شائع, تارة يحزن لما ألم بأسرة حاج الغالي وتارة أخري يلوم نفسه على إلتحاقة بهذه الأسرة الجميلة قائلاً:

- ربما ستكون الأمور أفضل لو لم ألتقي بمعلمي, ربما لعنة والداي وجدتي وجدتي يطارداني, الموت يتربص بمن حولي, يتربص بكل الذين أكثرث لأمرهم, لكن لماذا ليس أنا!

أشعر أبواب الورشة في محاولة بائسة لتناسي ما بدأه من أساطير دون جدوى وكلما أصر على ذلك تملكه الأمر أكثر حد الإستيطان, قال في نفسه بعد أن أخذ شهقة طويلة :

- سأغادرهم قبل أن تلحق بهم اللعنة سأرحل بعيداً عنهم,

أمن على فكرته تلك وعاد إلى عمله المضني وفي المساء الحزين حمل مؤونة اليوم المعتادة إلى المنزل, ألقى التحية على ست النساء ودون أن ينتظر الرد وضع ما بين يديه وإستدار نحو معلمه الذي ما زال يعانق دفتر الرسم بشكل ملائكي, لبرهة أيقن أن فكرة إخباره بالأمر ليس مثالياً فقط عليه أن ينسحب دون إحداث جلبة, لكنه يخاف أيضاً ندم حاج الغالي على تربية يتيم مشرد هرب بعد أن إخضر عوده لتستمر لعنته بدورها في محو آثار الرحمة من قلبه, خياران إختار أصعبهما سحب نفسه ومضى نحو المجهول وما أن وصل تلك المدينة المجهولة أيضاً إنزوى وأخذ يبكي متذكراً حديث معلمه : جميعنا في وقت ما نحتاج لأن نبكي, حتى العصافير تحتاج ذلك!

موسم الجفاف

هي فقط من تجعلني أمتهن طفولتي, طفولتي الهاربة, تجعلني أتذكر بشراهة كل شيء جميلاً أو سيئاً إحتفظت به في ذكراتها, مسجي هناك كأسير أزمنة غابرة تليدة ومخطوف الوجه, خالي إلا منها الذي أعرفه جيداً ودون محاولات جادة أفرغتها لتلبسني مجدداً, لذة عارمة تعتري الجزء الحر منّا تقاوم عبرنا عبودية الذاكرة وضخامة الأغلال فيها وأزلية الحزن, وعلى ناصية أقرب لأحضان أمي أختبأ, أراقب وأهتف, ناصية نتبادل معها حوجة الإتكاء لأننا مُرغمين على إغاثة بعضنا دفء وصلابة بعضنا, هي لذة مسحورة مسكونة منبوذة وأنا سجين قوسين في نص لم ينضج بعد, كما هي وكما هم جميعاً أسرى الوقت والأشياء وسجناء البراح الحر والأفق البعيد

في صباح شتوي جعل حتى الأرصفة تتلوى في محاولة يائسة لإحتضان الشوارع الهاربة, أيادي المارة تسكن جيوب معاطفهم الدافئة, برودة قارصة تتلاشى شيء فشيء, هي أوقات رائعة للتسكع خارج البيت والتحميل في إنكماش الأشياء أو كما يقول صديقي إبراهيم بأنها لحظة ضعف تستدعي إلتقاء الرب داخل عظامنا, لم أكن أعلم الكثير عن ما يقصده لكن لسبب أعرفه أو افقه, إفتعلتُ شجاراً خفيفاً مع رفيقنا يوسف الذي يتقمص دور البغبغاء أثناء نومه في صباح كهذا ليفسد قدسيته هو هكذا دائماً لا يهتم, لعناه معاً مغادران إلى حيث نستطيع أن نجد السلام أو بمعنى أكثر دقة بعض الهدوء, كأن نتناول حساء ما في مكان ما أو أن نتمشى على أنقاض المدينة التي أضحت مدينتنا الآن كما نعتقد, مدينة حرصت على تعليمنا كل دروس الحياة مدينة تلعننا ونلعناها, تضحكنا ونضحكها, مدينة أصبحت مع الوقت أم أخرى طيبة وشريرة في آن واحد, مررنا كالعادة

بمقهي حامد تدفعنا الرغبة في إستنشاق القهوة, لا أعرف سر جمالية القهوة في مواسم الجوافة ربما إمتزاج مرارة الإخفاق مع لذة المرحلة هي ما تستوفي تلك المتعة اللعينة, وجدنا كل الذين إستدعيناهم في مخيلتنا موجودين هناك لا ينقصهم إصبع قدم أو يد, حتى منتصر الفيل كان حاضراً بأقصى بهاءه ووجهه الصبوح الضاحك, إبراهيم أيضاً قادم في زهو بعد أن أعطى القهوجي قائمة الطلبات القصيرة, تبادلنا تحايانا الحارة الخاصة بعيداً عن حقيقة الطقس الصاخب, ضحكنا, إحتسينا ما أمكننا إحتساؤه, تناقشنا بصورة عبثية عن موسم الجوافة المزعوم عن المواد المشتركة وطرق تقسيمها وفق الأيام المتاحة, وبعد جدل طويل إنفض الجميع إلى حيث يجب أن يكونوا, إبراهيم في محاولة لنصب فخ محكم للحظ السيء الذي يطارده قال لي بعد أن إستدار ليتأكد من شيء لا أعرفه ولم يشاطرني إياه:

- سأنتصر هذه المرة

لم أعر تصريحه أيّ إهتمام, هي عادتي لا أكرث لأنني لست الشخص المنوط بذلك وصلنا منزلنا الصغير في وسط حي الرديف المشهور بكيميائيته منذ عقود طويلة وبالرغم من السوء الذي يكتنف المكان شعرنا نحوه بانتماء حقيقي ربما لأننا من أماكن مشابهة أو لشعبية الأشياء فينا, يوسف ما زال متكأ على فراش يتوسط الغرفة الكبيرة الواحدة التي تسعنا جميعاً بكل حماقاتنا وحقائبنا وترهاتنا, أغنية لمحمد النصري تقفز من هاتفه الملقى على الأرض, على الأرض هنا تعني على التراب لأن جميعنا على الأرض بلا أسرة بلا مناضد وبلا كراسي أيضاً, ركله إبراهيم في إشارة منه لعدم المسؤولية, تشاجرا تناكفا صرخا كالعادة ثم أردف إبراهيم:

- تجهز لنذهب إلى الفطار يا ماسورة

في السابعة مساءً وبعد أن هاتفني صديقي فنيّ لنلحق بهم في منزل صديقنا حمد لإفتعال مراجعة جماعية تدفع بنا إلى بر الأمان, هي محاولة

لترميم ثقوب الذاكرة التي مزقتها الفراغ الطويل, نتمدد قبالة مكيف الماء الصغير, نتبادل الأسئلة الأجوبة السجائر وأكياس التبغ وأحياناً المزاح الثقيل الجميل نوعاً ما, ينتابنا نوع من الفزع المبهم والحزن الكاسح جراء أشياء لم تحدث, هي احاسيس لازمتنا طول السنوات التي قضيناها هناك, خوف الإخفاق والعبور وخوف آخر أشد لعنة, عاماً آخر من التشرذم والتبلد والفتة كما قال أحدهم, كنا حريصين على أن نكون معاً في مرحلة قادمة ومنعطف جديد, وكعادتنا جميعاً لانام حتى نجهز على كل توقعاتنا وإمتحاناتنا القديمة وما يرشحه البعض هي لحظة نصاب فيها جميعاً بالرغبة في القفز والتحليق عن احتمال السقوط في فخ نسجناه ذات سيمستر, في الصباح نتوجه بزهو حيث يجب أن نكون, تعلو ملامحنا تجاعيد التعب والإرهاق المستمر وبعد خروجنا مباشرة من الحرم الجامعي تأخذنا خطواتنا بقصد أو دون قصد إلى مقهى العم حامد, حامد بائع البهجة أو بالأدق الكافين اللذيذ, نجتمع مفترقين كل منا داخل كوب معتق يسافر عبره إلى عوالم تخصه وحده, صمت يسبق ضجيجنا المؤكد ونبقى في ذات الدوامة طوال موسم الجوافة

موسم الجوافة جامع الأحباء كما يقول المثل:

- إن كنتم أصدقاء حقاً ستلتقون في موسم الجوافة

مرّ الوقت سريعاً كإعصار خبيث, مضي الموسم كالمعتاد ومضينا نحن أيضاً إلى اعشاشنا وإلى احضان أوطاننا الصغيرة, وفي جيوبنا تذاكر عودة حتمية إلى ما نسميه البيت المسكون, إجازة قصيرة نحظى فيها بنوع من السلام المغاير للسلام الذي كُنا نعيشه, بوجبات نظيفة وإسترخاء تام وربما بجنون أقل, تتناقل الهواتف اخبار بعضنا ومستجداتها وفجأة نجد انفسنا في لبّ المكان الذي هربنا منه بصورة مؤقتة لخوض عام آخر مليء بالإثارة والمعاناة, نتبادل عناق مغشوش وإبتسامات حقيقية من اعماقنا نجدد ملامسة الأمكنة التي لم يطول غيابنا عنها نستنشق روائحنا القديمة

في بعضنا ونشرع في نسج خطط تقودنا بكل أريحية، خطط لا تنجدنا، نحن نعلم ذلك ولكن حتى للفشل خطة لكي لا يكون فشلاً زريعاً ، أو كما يقول المثل:

"إذا لم تستطيع منع نفسك من السقوط حاول أن تسقط بطريقة أخف ضرراً"

في منتصف مميت، منتصف العام، منتصف الشهر، منتصف الشارع، وكل منتصفات الأشياء هنا مرهقة جداً إذ تذهب النقود ادراج الرياح ويظهر الفلاسفة الذين يقطنون في جزء ما بداخلنا، تتوتر علاقاتنا مع كل سكان البسيطة تقريباً حتى نحن الآخرين الملزمين على موااساة ذاتنا، حيث لا مخرج لك سوى مدى عمق علاقتك مع إدريس البقال هو إختبار حقيقي للصبر والتكشف بأبهي صورته، تشرذ لذيد خاصة عندما يعبر عنه صديقي خالد بضحكة مجلجلة تحمل في طياتها ألم ممتع يزول مع أول مائة جنيه يستقران في حيب ما بالقرب من مؤخرتك، تغير ملامح الحياة وشكل المستقبل بل وتعيد إليك آمالك وكبريائك وكل شيء أوشك على التلاشي، هي لحظة تستدعي المرح فالفقراء لا يابيهون لما بعد الموجود حتى يجدون أنفسهم على أبواب العدم، أو ربما بوجه آخر للمعادلة (الفلس المدقع)، حينها يبدأ شاعر صغير بداخلي في رسم لوحات جمالية عدة لوحة الفقد والإحتياج والسفر عبر الكلمات إلى مدن بعيدة جداً عن فكرة الوصول، يسافر فقط دون تعاليم وفي كل المحطات الثلجة يجد وجه أمه غطاء صوفي يحيل بينه وبين برودة تلك المدن التي لا تبدو مكاناً مثالياً للغرباء، لا تبدو كما نعتقد أو كما نعتقد مخيلتنا التي تمارس الترحال دائماً، ونعود مرة أخرى على إيقاع الجيوب الفارغة وموسيقى العدم لفتح مسارات ذات حلول وهمية، كأن تبحث عنك في حقيبتك المكونة عنك تجد شيئاً يدفعك نحو ما ترغب، في حالات مماثلة عادة ما أسحب نفسي إلى كلية الهندسة جامعة الإمام المهدي لأتركني هناك بين زحمة البشر وأفكارهم، بين مقعد ومقعد وزقاق وزقاق، بين أركان النقاش وهدوء المكتبة، أقسمني

بصورة أو بأخرى على تلك الأمكنة وأهرب تاركاً إياي المجزء ريثما أجد
مخرج

أو كما يقول المثل:

- "الشيء الأسوء من الوقوع في المشاكل, التأقلم معها " وهذا ما كنا
نفعله على أكمل وجه

في نهاية العام وبعد أن أنفقنا آخر ذرة قوة في بحث التخرج, مرحلة كنا على
يقين بمجيئها, كان عليها أن تحدث لتنتشلنا من سفسطائية الأشياء أو على
الأقل من القاع وعبثيته, منتصر الكبير أيضاً فرح كثيراً لأجل الجميع
ولأجله بصورة خاصة, ربما لأن خروجنا من هناك لم يتكفل به البحث
المسروق وحده كما قال فني بل حتى لذلك المختل الذي كان بيننا دور
توفيقي من جهة إلهية أحمدها جداً وكذلك لجار صديقي منتصر مساعد
التدريس الفاسد الذي كان من الممكن أن نغرق من دون أسئلته السلسلة
المتعمدة على الأرجح, أشكرهم جميعاً بصورة مرحلية سابقة لن أفعالها الآن
لو تجددت الأحداث, والشكر الأقرب للعناق أحتفظ به لإنتصار بائعة
الشاي التي ما زالت تحتفظ بكراسة الجارورة اللعينة وحدث ما حدث, أمر
ممتع للغاية أن تجتر معاناة الماضي بتلذذ حقيقي وإشتياق مهول لكل
لحظات اليأس والحنين, ربما لأنها أقل سوءاً من حياتي ما قبل ولوج تلك
المدينة السحرية بلاشك, تلك المدينة التي أضافت أكثر من ما حذفت
وأعطت أكثر من ما أخذت

أو كما يقول المثل:

- " المدينة أنثى أيضاً, عليك أن تفهمها أو تطلب النجدة "

عليك أن تتحلى ببعضاً من الشجاعة والخيال الخصب لتتعاش مع تلك
الأنثى المتقلبة بطبيعة النوع ربما, كأن تتجرد منك الذي يؤلمك لفترة
أطول ما أمكن أو أن تواجهها بطريقتك, وإياك أن تستخدم طبيعتك

الذكورية ضدها وإلا ستجد نفسك ذليلاً محاطاً بالرعب, كعشرات الأصدقاء الذين هربوا من هناك مستنجدين ولكن كان من الأفضل أن يستمروا أو أن يبتكروا اسلوباً على مقاسهم, حيث الفرصة لا تأتي مرتين في حياة واحدة, أو ربما نحن لم نمر بتجربة مماثلة لنحدد صواب أو خطأ ما إتخذوه, إنتقلنا كعادتنا إلى حي الحلة الجديدة هي رحلة تنقل طويلة جداً دون إستقرار نسبي, تتبعنا ذاكرة ملّت منهجية التأقلم الناقص وإصطحاب أشياءها القديمة إلى سكن جديد, ليست مصادفة أن نصل مع رمضان شهر التوبة والغفران لنبدأ معه الجلوس هناك, الفرق بيننا أنه لا يدفع الإيجار, لأكون صريحاً هو ضيف غير مرحب به في ظروف أفضل ما يقال عنها سيئة وقل ما يحظى بمعجبين, أو كما يقول إبراهيم مماًزحاً:

- ربما الصوم في مثل هذه الظروف هي التهلكة التي يقصدها الرب

ليس بيننا ما يستدعي البكاء

هكذا ومنذ التلاشي الأول لأكذوبة البقاء, منذ إنسدال ستائر الغرفة الرمادية وإخْتباء منزلنا الصغير في حقيبة أبي الدبلوماسية, منذ أن إكتشفت نضجي وإنتصاب ما يفترض أن ينتصب من جسدي الطفولي, منذ ان اهدتني قُبلة مطوية داخل رسالة النسيان تلك, حينها لم أتذكر حوجتي لأن أبكي أو لأصرخ لم أتذكر رغبتني في إحتضان الفراغ الباهت والنحيب, لا تكثرني لذلك لا تكثرني لبقاياي الممزقة التي تدوسينها وانت ترقصين لا تكثرني بتاتاً لتأوهاتي ودمي المبعثر على كل الأمكنة التي ترتادينها ولا ترتادينها, لا تنقي في تزمير المارة أو عيناكِ فكل ما يحدث أسفل قدميكِ لا يخصك أو ينتمي إليكِ فليس بيننا ما يستدعي البكاء, رائحة الموت الشهي تكتنز المكان " الأرض والبحر والجو والسماء والقبور والكهوف " شيخ القرية ممسكاً بمهبل أصغر زوجاته المسنات ربما ليدخل هناك لكي لا تتلبسه روح الجنى الذي يزعم الجميع عدا قاتلتني بأنه يسكنني, سحرة القرية كتبوا ملاحظاتهم وأقاموا طقوسهم, قوس الدخان اللئيم يزحف نحو كل شيء حتى ذلك الفراغ الذي بين محفظة جدتي الخرساء ودبوس إغلاقه, وقبل أن "يفكوا" طلاسيم الأشياء ماتوا وهلكوا, ربما خنقتهم رائحة القرنفل وخشب الجخجخ اللذان ينبعثات من المقود الطيني, حبيبتني التي تشبه الجميع ولا يشبهها أحد هي أقرب للحظة ما قبل الوصول وما بعد التحرك, لم تتحدث في لقائنا الأخير ولم تبكي كمسلمات كل الحالات المماثلة, لم تقول ما يجول في خاطرها الحزين, كلانا يدري بعدم وجود اسباب بعينها تقودنا نحو الفراق كلانا يعلم مسبقاً بأن الحب لا يموت فينا بل بإمكانه أن يتحول إلى شبح يقتلنا ببطء أو يُسقط كل أنثيات الأشياء من نظري, نظري الذي لا يحوي لسان سحري يتذوق لذة

الألم ، دسستُ الفراغ كله في حقيبة اليد خاصتها متحسناً إمتلاءه الأبدى ومتأملاً بداية الأشياء من طين الحبيبة، مترقباً أشكال الحياه وهي تصبغ نفسها بعلبة المكياج الصينية، المنتوج الصيني الذي إرتبط بالفشل في وجدان الشعوب التي أنتهي إليها بصورة أو بأخرى، حينها كان اللون الأسود فقط ما يلمع الأسود القاتم يتربص بكل الألوان طاغياً على طريقته، الأسود اللون السياسي كما قال صديقي (شطة) لم أهضم فكرة أن تولد الأشياء ميتة من رحم الحقيبة المكتظة بالحياة ومنتشية بأريج الأمل النسبي، هي لحظة اقرب لإنتشال روحك الشقية منك، أشبه بتمزيق ما نسجته في مخيلتك من مناديل وهدايا وكل ما لا يستدعي البكاء، قالت بعد أن قدمت لي جنازتي وبعض القبور الصغيرة:

- أجهضتُ كل شيء، كل شيء كان الممكن أن يكون

إعترتني صدمة أعادت ترتيب الكون والأشياء داخلي، أعادت إنتاج رغباتي البريئة ومقتضاه أن لا تتفاجأ أبداً، تذكرت نصيحة والدي نصيحة من ماضي أغبر أسمر كان مضمونها:

- لا تعشق بشراهة وعنفوان يا بني ولا تراهن بكل ما تملك، الشخصوس ليسوا تجسيدا للملكوت والأشياء أيضاً وإلا ستقتل، فالموت مصير محتوم إذا ما سقطت في فخ مماثل يا بني، صدقني ستتهشم كأبيّ مرآة سلمت نفسها لطفل لعوب يستمتع بالأصوات التي يُصدرها الإرتطام

تذكرت حينها خيال امرأة كانت تأتي مساءً لصبي يشبهني، تأتي إليه غير أبهة بجموع الأطفال الصغار وظل المطبخ الممتلأ بنسوة الحي وهن يتبادلن الحديث وفناجين القهوة البيضاء، في زاوية بالقرب من الجميع حيث تمارس بعضهن المشاط، تجلس جارتنا مريم لتمتحن دورها في قراءة الفناجين هي صاحبة أبشع الأكاذيب التي تعرض لها عقل طفل بعمرى، ربما هي فقط من إستدرجت تحفظي حيال الأنباء في المستقبل، تأتي

لتهمس في إذني أمام الجميع متخذة هيئة العديد من اللواتي يجلسن على مائدة القهوة التقليدية مضيئة بعد كل إبتسامة صفراء _ ألا تشتهييني, ألا تشتهي شيئاً من هذه الأجساد المتناثرة أمامك, هي تستفزني دائماً وتوقظ أشباح أشياء لم تكتمل في حقيقتها توقظ رغبة رجل لم أكونه بعد, ثم تختفي بعد أن تطبع قُبلة على خدي قُبلة لن ولم يستطيع عقلي الصغير تصنيفها وتتلاشى مترقبة ذهبولي, رعبي, عرقي المتصبب ومخيلتي المنتصبة, هي هكذا تملأني منذ الصغر بطيشها البدوي وتصوراتها التي تفتك بي, تلك المرأه هي نفسها أنثى المقود التي قتلت السحرة الذين تجمعوا لإنقاذي هي نفسها التي إعتلت خيط دخان القرنفل وخشب الجججخ بسطوها المستبد وحسمت صراع الآخرين مع الجني الذي يسكنني كما يحلو لهم, ها هو الصبي الذي ربما تلبسته رجلاً ليس سويماً رجلاً خرجت تصرفاته عن إرادته لكن ليس بالدرجة التي تُحتم علينا أن نُطلق عليه مجنوناً بالمعنى السوقي للجنون, على الأقل الآن , قاتلتي الرحيمة تثير شهوة السلفي الذي بداخلي وتزعزع إترانه, وتنتزع وقاره المخبأ أسفل لحيته الطويله, كانت كلما رغبت في العبث برجلاً تلحق بفارسها الذي إقتنته منذ الصغر, منذ الأبد الأول, وذات قهوة عابرة مع مقاهي القضيب المحازي للسكك الحديدية, وحدي كنت جالس هناك أسبح فيني متسامراً معي الآخر وحدي أتفقد كل شيء يخصني ولا يخصني, كل الأشياء تبدو ضدي حتى أنا ضدي بكل الزوايا, ها هي الشوارع أيضاً ممددة بالقرب من المقهى العتيق مختبأة من الجدران الذي لا يستمتع إلا وهو متكأ عليها, الشوارع مثلي تماماً تُرهقها الظلال وتستعبد لها خطاوى البشر المُثقلين بالوجع كل هذه الأوزان الفائضة تتحملها الأرض في شخص الشوارع, حتى نحن عندما تضيق بنا الأماكن نذهب إلى الشوارع, البيوت عندما تمتلأ تتمدد على الشوارع, النيل عندما يفيض يلجأ إلى الشوارع والشوارع عندما تهرب تدخل في ذتها, لهذا هي من أروع بيوت الله هي أكثر قُدسية من تلك المنازل الأسفلتية المزينة بالصواعق الكهربائية, حتى حبيبتي تتخذ من

حين لآخر شكل شارع المدينة الرئيسي لتوفر براحاً كبيراً نتسكع فيه نحن والبشر وابناء آدم وبقية الشوارع الصغيرة, بينما أحتسي قهوتي داهمني شخص بداخلي شخص أعرفه جيداً لأننا نلتقي في ظروف وأماكن مماثلة, كان يقول لي:

- ما يحدث الآن يا صديقي يستدعي البكاء,

فأتجاهلة عائداً إليّ وإلى سيارة الإسعاف التي إصطدمت بالقطار لتوها, هرولت كالجميع نحوها هرولت لا شيء سوى أن سجتني كإنسان تدفعني لنجدة الضحايا, كانا عروسين خرجا للتو من مركز التصوير كما هو شائع, عروسين جميلين صغيرين, ما زالت إبتسامات المدعويين متناثرة حول المقاعد, سحبنا جسدهما الممزق والملتصق مع حديد السيارة اللعينة, قال الزوج وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة (أخبروا أمي أن لا تبكي) هذا فقط ما كان يتمم به إلى أن رد أمانته التي على الجميع ردها بشكل أو بآخر, بقطار أو رصاصة بقذيفة هاون أو ممارسة الجنس في أسطح المنازل, كلنا سنردها حتى حبيبتني التي تطارد الأشياء عبري ستفعل ذلك ذات يوم

هبط المساء الأنيق, هبط ليرمم ما إفتعلته الحبيبة من شروخ وندوب, هو الآن لم يأتي وحده لم يأتي ملتزماً بتلك الوعود التي قطعناها ذات ليلة, ولم يعد مهتماً بمن يصطحبه في مشواره اللذيذ, لقد أتى مع محبوبتي الشبح محبوبتي الساذجة والمقيتة في الوقت نفسه, ليس هناك ما يستدعي وجودها بيننا لكن هي هكذا منذ أن إعتلت مخيلتي شكل الأنثى أو بصورة أكثر دقة صراع الجسد ولذته الطبيعية, هو شيء ممتد لا يمت لمنطق الأشياء بصلة, كأن يستيقظ (الدليب) من جوف الأرض (هلوكاً) ذو طعم لذيذ رقيق, لا أندesh جراء خروجها الصادم من جلباب المساء لا أندesh من إنقضاضها على لقائنا الدوري معه لتقول لي كل ما حدث وما سيحدث وما لن يحدث لا يستدعي البكاء

مساحيق لا تحصى النساء

من أين لهذا الليل كل هذه الظلمة الفاحشة, من أين له كل هذا الجموح السائب, الدموع البائسة, البطش الفائض والصراخ, الليل الأسود دونها مساحيق هو نفسه مجموعة من المساحيق المعتمة القاتمة, الليل الذي لا يخشى فرقة الأصابع التي تستأذن الرحيل, الأسرة اللولبية, بقايا شخير, صفير الرياح والظلال المجازية للأموات, الليل لا يخشى شيئاً, هو أسمى وقت للتوجس والإنفتاح وأبشع وقت للإنخراط في التفاضل, حينها تُشرع أنثيات الأشياء حصونها, تستفز وتبتذل, هي كل ما يكفي لإستثارة اعتدال الأشياء, الليل راهباً أيضاً, شيخاً عجوز وطفلاً وليد, كهلاً ومضغة في آن واحد.

الليل قلنسوة وفراغ كبير من العتمة وجدار مطلي بالسواد, لا نرى فيه شيئاً سوانا نتحسس حينها عظمة الملكوت ونبدو كما خلقنا عرايا تماماً من لحظة الوجود الأولى, الليل هكذا يتسلل داخلنا لينتشلنا من الضوء الساطع كجسد المرأة ولنعود بذاكرة متسعة حتى نستقر مرة أخرى بمخيلة القدر ونخضع شئنا أم أبينا لقوه ماورائية نتفق في وجودها نخلف في طبيعة الوصول إليها, ففي الليل يُقيم الغرباء عزاءهم, مزيج من الفقد والحنين والإنغماس في الذكرى, هو عزاء لا يشبهه تأيين كأن ترحل باقياً, الغرباء يشرعون في العودة قبل رحيلهم, يصطحبون معهم امكنتهم التي يحبونها, وجوه اصدقائهم, يحزمون حتى شكل العناق الأخير لأمهاتهم, هم عجازون تائهنون لأنهم بمثابة أبواب لم تستطيع أن تتحرر من الأشجار العملاقة, هم هكذا يصطحبون كل شيء عدا هم, يستعيدون الممكن من مخيلتهم ويصنعون من الغبار طوق يتلاشى عند نهاية الطريق والفراغ أيضاً

ليس هناك أبشع من أن تتسائل عن من طوى الطريق خلفك, من كنس البساط المجازي, على الأرجح من فعل ذلك لا يريد أن يحتفظ بتلك

الخطاوي, لا يرغب في أن يعود الغرباء مجدداً لأماكن تبدو باهتة بالنسبة لهم مشعة ساطعة بالنسبة للغرباء, ففي وقت ما عليك إستيعاب أن الأمر كله ضدك منذ البداية وعلينا أن تستمر لأننا بطريقة أو بأخرى نحارب لأجلنا ولأجل سجيننا كإنس, تفقد غابريال مصطافي محفظته الجلدية الصغيرة متخبطاً رغبة السفر نحو الأماكن التي جاء منها, تفقد تلك الصور الصغيرة التي إلتصقت ببعضها لتشكّل مزيج إجتماعي من ألونها المتعددة, إتخذت هيئة أسرة تسكن محفظته, بنظرات متسرفة حزينة تنقل بينها ليجد نفسه أيضاً بكامل براءته الطفولية, صرخ كل ما إحتزنه من ألم وفقد وبُعد, صرخة في الحقيقة عدة صرخات مجتمعة في نوبة واحدة, تخيل والده يتمشى معه على الرصيف يمازحه ويطمئنه على من يكثرث لأمرهم ومن لا يكثرث أيضاً, يستحيان من أن يرمي أحدهما اللوم على الآخر أو أن ينسجاً فرصة لأيّ شكل من أشكال العتاب, هي فقط ذاكرة تطارد صاحبها, تذكر حينها أن الأمر لا يستوجب كل هذا الحزن

الوجهة المبهمة لا تعني بالضرورة حيث تعتقد فقد يكون الإتجاه الذي إفترضه أماناً الإتجاه الذي إرتسم في مخيلتك ملاذ رحيم, هو الوجهة المبهمة منذ البداية, كانت هذه الجملة مطبوعة على ذهنه بشراهة منذ سنوات طويلة, قرر حينها أن يهجر محفظته تلك, أن يُفقد الشيء الذي يسحبه نحو الوراثة لكن ماذا سيفعل حيال ذاكرته وعشوائية التنقل عبرها, وهل سيكون الهروب حلاً وسطياً يستدعي المجازفة_ لا يعلم

في مساءً بهيَّ خرج كعادته بكامل بهاءه الرياضي ليبدأ بالركض عبر طرق ملتوية يُحبذها, طرق تؤدي إلى حيث لا يتعثّر بوجوه يعرفها, هو يركض من كل شيء, من ذاكرته وذكرياته, من ظله وظلال الأشياء الأخرى, فقط يركض ولكن لأسباب عدة, ربما هي طريقة مثلى لترويض الذات تخصه وحده, حتى وجد نفسه أمام منزل بائع الحشيش الذي كان يرتاده مع اصدقاء آخرين تساقطوا تباعاً مع الوقت, إلتقط انفاسه وهو يُحملق فيه وفي الطريق يعود بنظره للمنزل ثم للطريق مرة أخرى ثم لأماكن لا يعرفها,

نظرات يسترجع عبرها لحظات السمر والسفر عبر لفافات خرج ابطالها وصناعاتها من المشهد، لفافات _ مُطرت _ بمنقوع البلح العتيق وإسناس الندامي، نظر أخيراً لباب المنزل، دخل في صراع محتدم بين أن يدخل ليعيد طقوسه القديمة أو يذهب بعيداً عن قدسية المكان، هو في الحقيقة مُمتن لذلك البراح الصغير الكبير وللكاهن بائع الحشيش لكن لماذا الآن، لم يهتم بالسؤال المنطقي الذي طرحه الجزء العقلاني منه لتوه وإقتحم المكان بخطى مترددة، لم يتردد الكاهن كثيراً في الترحيب به بحكم أنه زبون قديم لكن قدومه في اليوم الذي سبقه صراع شرس مع مكافحة المخدرات كانت كفيلة لإثارة الشكوك تجاه كل زائر مهما كان، تحايا حارة سبقها سؤال طبيعي عن سبب غيابه الطويل تحولت فيما بعد لضحك هستييري، أكرمه المعلم بلفافة كانت قابعة يسراه، أخذ _ رأس حشيش أصلي _ بسعر آل البيت بإعتباره من الذين ساهموا بصورة أو باخرى في تطوير العمل، مدها ببطء مقصود وحميمية لذيذة

تذكر غابريال أنه كان يخاف تلك اللحظة التي يستلم فيها رأس بنقو عتيق، يخاف أن يتعثر ببوكسي المكافحة اللعين وهو يجوب أزقة الحي المنبوذ، تذكر ود الصول أحد أفراد السلك البوليسي ذو العضلات المفتولة والشارب الطويل وهو يطارده عبر شوارع ومنعطفات حي أم جخن الضيقة المتعرجة، تخيل في ذلك الوقت أن الراهب ليس سوى رجلاً بوليسياً، سد ضربة عشوائية في الهواء حسب إعتقاده وفي عنق الراهب واقعياً وواقعاً، رد المعلم الضربة التي أفلحت في أن تعيده من التعمق في ذاكرته، كل شيء كان حدثاً قديماً إستحدثته الذاكرة إلا تلك الضربة التي نالها الراهب، لكن من سيُخبر الخائف المتورط بأن الذاكرة فخ مُحكم وأن البنية أكثر نُضج وشفافية من الأم دلدوم

قدم إعتزار باهت وهو يقصد باب الخروج، وهو عبارة عن صفيح كان في الزمان القريب للجازولين، باب مقيد بتساهل مقصود لن يصمد عند أول محاولة صدام مُحتملة

يقول المثل:

- مسحوقان عليك ان تستمتع بهم, مسحوق البنقو ومسحوق الصندل

أخذ يجول عبر مخيلته وذاكرته اللئيمة مُحرضاً انامله على صنْع لفافة عبقة تساعده في التسكع والمُضي, بلاد الله الشاسعة تلفظ الفداديات والبغايا والشيوخيين خارج اسوار المواطنة, تلفظ ابناء الحرام وتترك ابناء الحرام من الطبقات البرجوازية حيث يختلف ابن حرام مسكين لطيف متعفن متسخ عن ابن حرام مُترف سمين بحلمات صغيرة وبطن مترهلة, في أوج مفارقاته تلك عبرت بأئعة مدمس سمراء متسخة جميلة, شاهرة يداها المتشققتين الممسكتين بصفرتها البيضاء, طفلة وليست طفلة, إمرأه وليست إمرأه, هي هكذا مزيج من إفرازات الوطن المتعاقبة, يظهر على جسدها الصغير منافي ومدن وقرى محروقة وعلى صدرها نهدان صغيران جميلان نافرين يشقان طريقهما بين ازاز العباءة السوداء الممزقة, يبحثان عن ضوءٍ يمرحاً فيه بحرية وعن يدٍ يُسري تعتصرهما بحميمية, لفظ فكرة أن يختلي بمعاناتها أكد أنه لن يختلف عن صاحب البندقية الذي طردها من وطنها الذي تألف والأرض التي تُحب, أزاح فكرته الذكورية الحمقاء من بين سرواله الكبير وعاد للفافته التي أخذته بدورها في رحلة إلى الجنوب وجامعة جوبا, إلى الملكية وقايتانو إسحاق, مومبيو وسيمو, اصدقاءه ابناء الحرام الرائعين , هو هكذا يعيش في ذاكرته, يعيش في رأسه ويجتر كل ما تُمليه عليه السجارة العتيقة وكأنه توقف هنا ليعبث بذاته المخبأه أو الإنسان الآخر داخله , أعاد فتح محفظته, نفس الوجوه والصور الملتصقة, ذات النظرات القاسية والوضعيات القديمة, يحتضن والده في مكان ما وماريام في مكان آخر, يحاول ان يبصق نفسه داخل محفظته وهو يبكي, يحشر رأسه ويبكي بهستريا مفرطة, يُطلق العنان لمخيلته عسى أن يستقرأ فكرة الولوج إلى هناك, دون جدوى يفعل ذلك ودون جدوى ايضاً يبكي, مسح على وجوههم برقة وحنان عميقان وهو يهذى:

- ماذا لو كنتم أحياء, ماذا لو كنتم هنا الآن

ماذا لو أنكم خدعتم الموت مثلي وتورطم في الحياه, فنحن قوم يكمن العذاب الحقيقي في بقائهم, إن كنتم أحياء فعلاً لا تبحثوا عني, لأنني ذاكرة صدئة, فقط ذاكرة تستفحل كل الأحداث , تسلق جرحه سريعاً, تنهد بصعوبه بالغة وعنف قبل أن يمد يده اليمنى المرتجفة لبحث أسفل السرير عن بقايا سجارة لفظها سهواً, نبش الرمل القابع هناك بدقة متناهية واعصاب متوترة, عثر على واحدة تُركت بتصرف, أشعلها وطارد الدخان النافذ منها كمن يُسرب روحة عند آخر لحظة إنتشاء, ربما كان عليه أن يحتفظ بشيء من صوت ماريام يُسربه إلى داخله ليُعوض ذلك التبدد, آهات وأنات ينفلتان ببطء وقسوه, عبثاً يحاول الصراخ عبثاً يُجرب صوته النحيل ليُصدر ضجيجاً نشاذ يعبر عن إمتلاءه, يأبى أن يستوعب فكرة البقاء داخل ذاكرته اللعينة , رمى محفظته الصغيرة اللئيمة الجميلة على شاطئ البحر, البحر أكثر نُبلاً وحفاظاً على مقتنيات الذاكرة, البحر صديق الشجر واليابسة والقتلة والماء وابناء الحرام وفض الإعتصام ايضاً, رمى بها وكأنها لا تخصه, بات أشد إستنكاراً لفكرة أن تسوقه ذاكرته نحو انحاء لا يستسيغها, نحو ماتم ومجازر وحزن لئيم ينخر جسده المتآكل والمتهالك حد الموت, نظر إلى نفسه بخبت جنديّ مقالو ثم أضاف:

- الموت موت, لكن أن تحيا هو الموت الأشد لعنة وعليك أن تكون أكثر شراهة وقوه ومرونه لتفعل ذلك.

تمطاً وتنفس الصُعداء, هذا التحول قد يستدعي الإحتفال أو بالأدق زياره أخرى إلى منزل الراهب للإطمئنان عليه أو لشيء في نفس غابريال, أخذ ينشد مقطعاً من أغنية قديمة رثة وهو يستحم, صوت المياه المتطايره تتداخل مع اللحن لتنتج إيقاعاً جميل مع نسبة ضعيفة من البشاعة, يقفز كطفل تعرف أخيراً على خصوصيته في الإستحمام وحيداً دون أن يستعين

بأمه في تدليك ظهره العريض, خرج نظيفاً من ذاكرته ورائحة البنقو أو هكذا خيل له ثم صرخ:

- في الحاليتين نحن ابناء حرام, لكن عليك أن تقرر هل ستكون ابن حرام مسكين لطيف متعفن متسخ وشريف أو ابن حرام مُترف سمين بحلمات صغيرة وبطن مترهلة ولص محترف وقاتل في أغلب الأحيان



سوسن الأخرى

البابنوس يترنح في حضان الأرض كعادته المسائية الشفيفة الذائقة ، يرقص نيابة عن بيوت الحزن المتناثرة على أطراف الطرق المعبدة بالأسفلت ، المُتَشَقِّقَة ، المكتظة بالحصى ، جمالية الرقص في توقيت كهذا يبعث في نفس سوسن فرح عظيم ويبدد الغصة التي في حلقها إذ تتعري من تقاليدها وتربط على خصرها خِمَاراً أحمر تُغَيِّظُ به الفراغ وتعبّر عن إختلافها هناك ، ترقص بجنون وشبق ، تحاكيها خصلات شعرها الكثيف طرباً وجسدها النحيف الممشوق يتهاوى برقة ورغبة ، لبرهة كانت بابنوسة جميلة كما أرادت ذلك دائماً ، لوهلة تخلصت من حقيقة أنها مجرة امرأة بدوية تهش اغنامها وتُنبت الزرع إلى أن تصل عمراً حدده آخرون للتلاقح والوطء ، كانت ما كانتهُ وما ترغّب في إستمراره ، سحبت نايّ تدفنه عادة تحت شجرة لبخ كبيرة تألفها ، بدأت بالعزف ، هي لا تدري كيف تعزف عليه لكنها تمارس الأمر بحب ، ليست بارعة في العزف والانتقال من صوت إلى صوت لكنها تواصل النفخ بحرية ، عموماً ما دامت تنسج لحناً لا يستمع إليه سواها فهو جميل ، ففي الغابة يستمتع الأسد بزئيره والحمار بنهيقه والعصافير بهديلها وسوسن بلحنها الركيك اللطيف

هشّت اغنامها نحو القرية بعد أن هيات نفسها بكل ما هو أخلاقي فيها لدخول بلدتها المقدسة ، انبياء ورسل ونخاسين ورقيق ، داعرت محصنات وشريفات لعينات متهمات ، تسمع أصوات زغاريد في الأفق كلما دنت ، تحاول أن تحرز الأمر ، روائح البوزة واللحوم المشوية يكتنزان الفراغ المتناهي ، زغاريد من ناحية أخرى قريبة ، أربعها المشهد وفي مخيلتها رسمت عروس لها هط على منزل والدها الحسن ، رسمت مشهداً ما وصدقته تماماً ، بكت بكل ما تحمل من يأس ، كلما دنت زاد رعبها

وسارعت أنفاسها المختلطة بالدموع ، أخذت تمشي محمقة بعينان
مُدَهْشَتَان كَبِيرَان ، على أعتاب القرية رأت شقيقتها الصغرى منال ، صرخت
بشدة كأنها أنفقت قوتها في صيحة واحدة

سألته من بين الدموع :

- في شنويا منال الحلة مالها جايفة كدي

منال بعد إبتسامة طفولية نيمية بعض الشيء :

- حاج الصاوي ، الساكن في البندر شالوه ناس المجلس

سوسن بعد أن تنهدت :

- تشيلو الداهية يا ربي ، رمى لي قلبي ، قالتها دون أن تعرف ما هو

المجلس ، فما دام الأمر لا يمسه فليفعلوا ما يشاؤون

كانت منال تقصد أن حاج الصاوي حاز على موطيء قدم في المجلس
التشريعي لكن لغتها وطفولتها خانها ، شيخ القرية والد سوسن قرر حينها
أن يُقيم مأدبة على شرفه لكن في الحقيقة هو عربون ما ، مقدم منفعة ما ،
لأن الحسن أو المصلحجي كما يحلو لموسى العلماني يُبَيِّت شيئاً في جوفه
بالتأكيد ، أو كما يقول دائماً :

- قديم كل ايام الأسبوع من أجل الأحد الذي تريده

موسى العلماني ابن شقيقة الصاوي ، أمه الحنانة صفية عجبين أو كما
يُنَادِيهَا الجميع صفاية لشيء في نفوسهم ، كانت إمراه بدينة جميلة يتغنى
بها الشعراء وتتناقل سيرتها النيمية ، تمتلك وجهاً أبيض دائري وردفين
طريين مكورتين وأشياء أخرى ، وهذا كله على ذمة المغفور له بإذن الله
داؤود يحي تاجر الأواني المنزلية وبنابر الحديد وزوج صفية في آن واحد ،
دائماً ما كان يهذى لحظة سُكْر بما تقتنيه صفية من أشياء ضيقة وأخرى

ضخمة ، كان يحبها ، يحب تفاصيلها المتعرجة وضحكتها المجلجلة
الناعمة ، يعشق أن تأتي وتأخذه كل ليلة من أسفل الجبل وتبحث عنه
بين الجثث ثم تنتشله ببطء ، يتقيأ على ظهرها كطفل ، يضحك ويمازحها
ويسب ابيها وأب القرية ، يسب الأرض والسماء والجبال و القرية ، يسبهم
ويلعنهم جميعاً عدا الحسن ، الحسن الذي يخشاه الأحياء والأموات
والجبال والخمر ايضاً ، ولا يستيقظ إلا غداً وقد نسي كل الذي حدث

السادسة صباحاً تستيقظ سوسن ، تجلد عيناها الناعستان بماء الدلو ،
تقصد زريبتها التي في الأصل بيتها ، تداعب أثداء اغنامها لتُرضع أخواتها
وأُمها ، تداعبهم بنشوة صباحية تستلذ بها ، ربما لمماثلة ما ترغب فيه ، ثم
تخرج نحو الخلاء الذي تحب ، هكذا كلما إبتعدت إتسعت الأرض أمامها
وباتت أكثر تحرراً ، كلما إبتعدت تشظت وتبعثرت بين الأشجار والأودية
عصفورة صغيرة تمتهن التحلق والغناء ، تتحرش باجزاءها هناك وتبتسم
وتكتشف أشياء غريبة جميلة ، هي إمرأه بكامل أنوثتها الآن ، ترقص عارياً
على الضفة دون أن تخشى رقيب أو نمام ، تعود للماء وتخرج منه ثم تعود
مرة أخرى عالقة بين إنحدار وعمق ، بين شهيق وزفير .

كما يقول المثل :

- الرقص حيلة الضعفاء على عنف الطبيعة

هبط المساء وسوسن تُطرز الشفق بجسدها الأملس ، تخلصه من
الشوائب فيبدو كمرآه ، تزيده حياء وبهاء وإجلال ، ثم تغمر نفسها في
جوف الوادي لآخر مرة قبل ترتدي ملابسها المعلقة على جِزَع شجرة ما
وتهرب نحو القرية بعد أن هشت اغنامها

في ديوان العمدة باع الحسن إبنته لحاج الصاوي رجل المجلس ، إستبدلها
بنفوذ لا يمتلكه في الأساس فهو ليس سوى طرطوراً صغير في مستودع
الطرايطير الواسع ، ليس سوى حمل وديع جاهل في صف الحمقى

المتورطين في الجهل والتهكم ، لكن الحسن باعها لأول مشتري ، لا وجود
لفرصة شوري أو رأي في مجتمعات ضيقة كهذه ، الأمور المماثلة تنتهي
هناك في غرف مغلقة واكواب شاي وقهوة ، ينسفون رغبة كل أنثى داخل
الديوان ، كم سوسن إنتهى بها المطاف على ذاك البساط الأحمدى ، كم
سوسن إختاروا لها رجلاً ومنفى وقبر ، ساقط الأرض النميمة عبر ثقب
الباب إلى نساء القرية ومرت بينهم بسلاسة أنثوية رهيبة ، بتفاني وسرعة
ومكر ، تناقلن الخبر ، منهن من حزنت ومنهن من زغردت ، منهن من
تملكها الأسى ومن إعتراها الفرح لخبث في دواخلهن ، النساء هكذا معك
من معك وعليك من عليك ، والدة سوسن في أصى ركن من البيت حيث
وصلها المصاب ، لعنة ما هطت ، صُدمت ناحت وصمتت ، ندمت وتباكت
وكأن سوسن جثماناً ، وما أن دخل شيخ الحسن صمتن وكأن شيئاً لم
يكن ، جميعهن إلا أم سوسن واقفة كعود يابس بعينان مدمعتان
متوسلتان ، قالت بين كل ذلك الدمع :

- بعثت بك يا حاج حسن ، بعثها لراجل أكبر من ابوها ، الله ينصرك
يا حسن رجع لي بتي ، الله ينصرك خليها في حالها البيت لساها
صغيرة

قال بعد أن عبث بشاربه ليبدو أكثر رجولة وهيبة :

- البيت بتصلح للزواج وانا قررت وما برجع في كلامي زيني العروس ،
ستزف الليلية وإلا ، ستستجدين الموت ياتو يوم في مره بتكسر كلام
راجل ، انت بت كلب ولا شنو

توسلته وركعت على رجليه ، دموع دافئة تتسرب داخل خُفيه ، دموع
شرهة غزيرة ، لكن ما حدث قد حدث فكيف يعود ليسحب كلامه ، لقد
قال وإنتهى لقد باعها وإنتهى ، كل شيء يتعلق بالرجولة خط أحمر ، زجرها
ورماها بعيداً ، لم تشفع لها تلك الدموع وذاك الخنوع ، لم تشفع لها

العُشرة والملح ، ها هي جارية بذيئة وعجوز يمكن أن يقتلها بضربة عصي غليظة .

سوسن تغني وهي تعدو نحو القرية ، ترقص وتبتهج ، لم ترتدي قناعها الأخلاقي هذه المرة ولم تدري ما تخبئه القرية حينها ، إيقاع الدلوكة يتسرب إلى اذنيها ، أصوات النساء واغانيهن الحميمة ، رائحة المسك والبخور عتيان فوق سماء القرية ، فرحت لأنها سترقص الليلة علناً وأمام جميع النسوة ، سترقص على إيقاع الثمثم الذي تحب وتُغني مع الصغار ، هي لا تدري بأن الليلة ليلتها والفرح فرحها بل الحزن حزنها ، ما أن وصلت القرية إختطفها النسوة ككومة طلع نيئة لذجة إختطفها النسوة بقوه وكأنهن يأخذنها سريعاً نحو حتفها ، لم تُبدي إعتراضاً بل إستمالت لعملية الخطف بضحك هستيري ، لا تعلم كم ستبكي بعد أن تعي الأمر ، ادخلوها حيث أمها التي إستنفذت قدرتها على البكاء هي الآن جثة متسمة في مكانها ، ترى ولا تتحدث تبكي دون دمع دون صوت

سألته سوسن:

- في شنو يا أمي مالك ، بتبكي ليه

قالت بعد أن عانقتها موجهة الحديث لباقي النسوة:

- جهزن العروس

صدمة عارمة إعترتها ، بدأت بالبكاء أخذت تصرخ بقوه وهي تسأل بين كل ذلك ،:

- لماذا؟ أنا لست عروساً ، دعوني

لكن دون جدوى فشيخ الحسن أتمم الصفقة ، ربما قبض مقدم المنفعة مع المهر والصداق ربما حصل أيضاً على حق الرضاعة وسدّ المال ، ربما أخذ كل شيء وإستنتج عادات أخرى يأخذ عبرها مالاً فائضاً

الصدّ والركض لم ينفعاً سوسن ، النسوه كُن قاسيات بما يكفي لترويضها ،
تبكي وينتفن منعرجاتها تبكي ويغزلن خصلها ، تبكي وترتدي فستانها تبكي
تُزف ، ليس مهماً أن تبكي المهم أن تتزوج ، حاج الصاوي في أبهى صورهِ ،
بأسنان صفراء وعباءة ذهبية جميلة جالس بين الحضور في ديوان حاج
الحسن ، ينتظر زوجته الصغيرة ، يوزع الحلوى والأموال وكأنها فعلاً
تستحقهُ

رقص من رقص ، إنتشى من إنتشى وسكر من سكر ، ذهب البائع وذهب
العروسان إلى حيث ذهباً وعاد الحمقى إلى أعشاشهم بعد أن ساعدوا
زعيمهم نخاس القرية في تجارته

كان حضورها باهتاً مشعاً

تأتي وتذهب في وقتٍ واحد ، تمر من فوق حاج الصاوي كسحابة ومن
تحتهِ كماء ، كضوءِ رمس ، تطير وتهبط ، يطير معها ويهبط طفلاً فضولياً ،
يطير ولا يصل ويهبط فلا يصل ، مُعلقاً بين الممارستين ، تُثني يمانها
وتبكي خلسة ، وخلسة أيضاً يحاول أن يصل ، هي هكذا مزيجاً من كل
شيءٍ واللا شيء ، دقيقة في تفاصيلها كلوحة ومتذبذبة في تألفها الخجول
وهو شيطان صغير يُمكن أن تُدلجه الملائكة في أيّ وقت ، شيطان
بقرنين صغيرين بارزين ، لم يستخدمها بعد في مهمة إستشعار خبيثة ،
لعنة لم تكتمل ، معجون بنيران عديدة دافئة ومنسيّ في بيت (أمون)
القديم أو في مبنى المجلس التشريعي العتيّد ، إستسلمت سوسن مع
الوقت ، لا مناص ومخرج فها هي في بيتها فتاه بكره بكامل زينتها الموهوبة
من الرب ، يدخل عليها يداعبها ويعبث بصدرها النافر ثم يتركها في أوج
هيجانها وينام ، ربما لأنه يخشى أن يجثو عليها بثقله فيقتلها ، في الليلة
التي تلتها نصبت فخ أكبر ، إنتظرتة قامت بمداعبته وبغنج الأنثى تعرفت
على شيء داخل السروال الكبير ، إستمرت بمداعبته وإستمالته ، فعلت ما
يجب أن يفعله هو وما زالت تواصل حتى تجرأ على ذلك ، وطئها لكن لا

شيء فمددته وجلست على شيء ولا شيء فقط كومه نائمة ثخينة مترهلة ، هي تهبط ولا تصل تطير ولا تصل ، يطير معها ولا يصل يهبط ولا يصل بتاتاً ، تائهان بين الممارستين ، يشخر مثل عربة تمكن منه الوحل ، قال بين سعاله وشخيره حاولي مرة أخرى ، حاولت وهي تبتسم ساخرة من هذا العجوز الذي لا حول له ولا قوة ، داعبته داعبته بشراهة ثم بصق .

أم سوسن تصلي من أجل إبنتها وتبتهل ، تلعن زوجها حاج الحسن الذي رمى بها في لجة عميقة كقطعة لحم سائغة تنهشها الليالي والنوى والرجل الخرف ، تذكرت زوجها من الحسن حينما كان عمرها لا يتجاوز الثلاثة عشر عاماً ، طفلة تهش الغنم كسوسن لوريث المشيخة الحسن أبو سن ، هي ذات اللعنة تطارد إبنتها من جديد وربما ستلحق بحفيدتها أيضاً ، كل شيء في يد القدر الآن لا شيء سأخسره ، الحمد لله على كل حال

نسوة الحي في أقصى شماتتهن ، ها هي الصبية التي طالما كرهوا فرحتها الزائدة ورشاقتها وإمتلائها بالحياة ، العاهرات لسن من يتاجرن بفروجهن فقط فالعهر يمكن أن يكون نميمة وشماتة وعُبن وضعينة

حاج الصاوي أصبح مجرة سوسن آخر إذا ما أخذنا الرجولة بمعايير شيخ الحسن ، لقد أصبح رجلاً في المجلس التشريعي فقط وليس على سريره ، إنزوي على نفسه بحزن وأسى لاطماً خده ، إنضمت إليه سوسن تؤازره وهي تضحك داخلها :

- ستشفى ، صدقني ستشفى

وفي السر كان ابن الجيران حاج صاوي جديد

فلسفة المشاط

البنادق تُهدى ايقاعها إليهن ، اللائي يُعدنْ تدوير النميمة في بيت إحداهن ذات قهوه وهنْ يخلعن وجوههن ، مكياجهن ، حيائهن وحتى ثيابهن إليهم ، الغارقون في بئر الخمر والنشوة ، العارين من سجايهم ورقابة الملكوت إفتراضاً ، حينما تنزوي الشمس تحت إبط السماء ، ينزوي الآتون من أقصى الأمكنة في أحضان أنثيات الحي ، بائعات الجسد يُستخرن بعضهن ، ينتعلن رغبتهن في الصيد والإنغماس في تقفي العائدين من الموت ، يستشعرن جيب وبنطال أيّ رجل يمر بمحازاتهم.

وفي بيت سوميت المتكئ على الوادي نخبي ذواتنا أو ما تبقى منّا ، نستوحي من دخان المقود المعبئ باعواد الصندل العطرة فكرة السفر عبر المخيلة ، نجوب مدن لا تشبهنا ونمر بأخرى تلفظنا سريعاً خارج المخيلة ، ترمينا على مدارج العودة المتسخة بمتعلقات الحي القديم الذي لم نبرحه منذ البداية ، ربما لأننا خلقنا فرصة أكبر للعودة قبل أن نذهب على سرير خشبي قرب غرفة الطين المتهالكة إستلقت عفاف بعد أن حشرت نفسها داخل غطاء مبتل ، يأكل جسدها الحمى والهذيان ، شفتاها المرتجفتان تفتعلان صدى خفيف لحديثها الركيك الغير متزن ، تشعر بأن الموت يتسلقها وانت تضع كفك أعلى رأسها ، تبتهل وتتمتم بصوت دامي وتقلب بصرها نحو اتجاهين بهزامة دقيقة ، كل ما فعلته في الماضي يمر امامها عبر تلفاذ وهمي اصطنعه الشعور بالموت ، كل صدام وخطيئة صوبته بخطيئة أخرى وكل أمر عالجتة على فراشها السائب ، تُغير وضعيتها لتهرب والمشاهد تطاردها ، تُغمض عينيها فتخرقهما الأحداث بعنف ورقة كضوء فاحش السطوع ، تغمس ثوبها الهزاز داخل إناء الماء الذي وضعتة قربها

سابقاً وتتسرب داخله بلطف مُتحسّسة جسدها العاري إلا منه ، تمتزج
دموعها بذلك الماء المتقطر الدافئ وهو يسلب الحمى تدريجياً

سوميت تتجول بيننا كأفعي وتُقسم عرق النخيل وعرقها المر علينا وبعض
غنجها اللئيم على الزبائن الجدد ، تضحك بسرعة وجهر ضحكة مُختزنة
قديمة لملمتها ذات فرح فليس في حاضرها القريب ما يستدعي كل هذا
الضحك ، تتسلل بين الجالسين بخِفة وهي تسترق النظر إلى الأعين التي
تلاحقها ، عيون الشباب ، الكهول ، بعض موظفي المحلية ، انا وصديقي
عمر أحياناً ، وبعض الحرفيين ، تلمي نداءات الجميع ثم تهبط على كرسيها
الخشي بعد أن ملّت التحليق

قالت بعد أن سحبت دخان السجائر إلى رئتيها :

- الليلة عيسى فوري ما جاب لنا بلح

وكانها توحى بأن الغد يوماً عصيباً أو أن السعر سيختلف أو أنها ترغب في
طرد بعض الزبائن المتهربين من الدفع أو ربما لشيئاً في نفسها لا علاقة له
بعيسى والبلح ، غمزت لنا في لا وعينا ، وعرفنا فيما بعد أن الرسالة كانت
لعناية يعقوب وزملاءه جزاري السوق الكبير

أن تذهبين باكراً إلى مكان متفق عليه لتمشطين شعركِ يومياً يعني أنكِ
تسحبين الونس والنميمة على إيقاع إبريق القهوة وليس المُشاط سوى
ذريعة لمُشاطٍ آخر تطبخينه على مهل وانتِ تعبرين بعيناك الشارع و
أرفف بيوت الجيران ودواليب الأنية وحتى لون الملاءه التي تحت رديكِ
الكبيرين الجميلتين ، هناك يُشعلن بعضهن ويخططن ويرسمن ويتوقعن
مصائر الأشياء والبشر ، هناك بالضبط ينفقن مصروف الشهر على ما تأتي
به الدالية من مقتنيات انثوية رديئة جميلة

تبددت الحمى قليلاً لكن جسدها المتهالك ما زال يستبيح سرير الخشب ،
هي لحظة أقرب لرد الروح مرة أخرى بعد أن فاضت إلى بارئها ، لحظة

أفرغت فيها عفاف ذاكرتها الممتلئة بجلسات النسوة وعوائهن ومكائدهن ومُشاطهن ، فرصة أخرى إفتكتها من يد القدر بصعوبة وصبر هشمت بعدها فناجين القهوة أمام إبنتها تامبير ثم أردفت :

- تاني ما عايضة أيّ مرا تشرب قهوه في بيتي ، بيتي ما بيت شكش مفهوم؟!

تامبير بعد أن مسحت بعينها رزاز وبلور الفناجين :

- حاضر يا أمي

قرر نديمي عمر بعد جلستنا البهية تلك ، خصوصاً عندما أخرجته سوميت لسبب لا أعرفه ولم يشاطرني إياه ، حثني بصوت غاضب على الخروج وفي مخيلته نسج قرمصيص وضع فيه تامبير ابنة عفاف ، يترنح كريشة ويتلعثم ويبكي ويضحك ، يفعل كل شيء في وقت واحد أو ربما إعتقدت ذلك ، لا أدري أيّ رأس لعبت فيه منقوع سوميت الخبيث ولا ادري من الذي يحمل الآخر ، هو أيضاً يجهل ذلك ، تلفظنا الأزقة لأزقة أخرى ثم لشوارع أوسع تهددنا كطفلان رضيعان أضاعا ثديّ امهما في زحمة الأتداء المتناثرة ، نبصق أنفسنا في لحظة اللاوعي تلك ونترجمها إلى حكايات عديدة ليس من بينها أن عمر يشتهي تامبير ابنة عفاف الغارقة في بحر التوبة المقدس ، تامبير أنثى النشوة التي تقتحم بصورة همجية جلستنا وتسحب مني عمر ، تسحبه نحوها فيغيب مغمض العينين منزوع البصيرة ، أو كما تدعي سوميت أن تامبير تخرج من قنينة عرق النخيل وتحشر نفسها داخل كأسه بطريقة ما تخلصت عفاف من ذاكرة العاهرة التي كانتها وحذرت بصورة قاطعة من أن تأتي النسوة إلى بيتها لأيّ نوع من أنواع المُشاط وأقسمت بالله وبآباء إبنتها الكثر على ذلك ، إلتحقت بجمعية الحي النسوية الخيرية ومسيد الشيخ سيف الدين الذي يعمل مجاهد في الدفاع الشعبي حينها ، وغابت في غياهب التصوف العميق متحررة من نسختها الرديئة ، الأمر أشبه بأن تغمس نفسك داخل إناء ممتلئ بمنقوع ما لتستعيد ذلك الملاك

المنهوب منك في أسرع وقت ممكن ، أمراً قد يُفقدنا صديقتها المقربة سوميت التي طمأنة ذبائنها بأن الأمر مستحيل وان عفاف ستعود بعد أيام أو شهور فالجمعيات لا تدر نقود ولا تُشبع رغبة الأنثى التي إعتادت على تسويقها خارج دائرة الرغبة ، لكننا وفي السر لا نرغب في عودة عفاف إلى شخصيتها القديمة

عمر يعبى جوفه بمنقوع البلح ليلتقي بتامبير ، يواعدها ويلتقيها ويستأنس بها وقتما أراد وحينما شاء ، يعتمد الأمر فقط على كم كأس يرتشفه وكم ساعة تستمر رحلته المجازية من حيث بمبر الحديد الذي يتأبطه ، سوميت تلوح بيديها أمام وجهه ثم تضيف راسمة ابتسامة واسعة :

- صحك دخل في غيبوبة ، الله يعينو

شعور صديقي عمر يحرضني لأن أخوض تجربة مماثلة واتذوق لذة أخرى غير لذة منقوع النخيل العتيق ، فبالرغم من كتلة الحزن التي تُدثره والألم الذي يعبره ببطء ثمة فرح مدفون بحب في حناياه وعشق يتخلل لحظات السمر التي يعيشها أسفل بيت سوميت

لكن من أين لي بتامبير أخرى!؟

ربما الشعور بالحب يخيفني أكثر من الرغبة في الإبتعاد منه ، ففكرة أن تكون متاحاً مكشوف الدواخل لا تروق للهاربين والمنغلقين مثلي ، لا يكثرثون للعلاقات المكلفة وترجمة احاسيسهم لجمل مبتذلة حيث ايمانهم العميق بأن الشعور لا يمكن أن يتحول لمُفردة أو يتجلى للغة

إرتقت عفاف من طالبة في مسيد الشيخ سيف الدين إلى الأمين العام للجمعية الخيرية النسوية المنضوية تحت اتحاد المرأة بصورة غير مباشرة ، ربما رغبتها في إرتداء الثوب الأبيض سيدفعها فيما بعد للدخول في دهاليز المحلية طالما أنها تمتلك كل المقومات التي تتفق مع معايير اتحاد المرأة الممنهج ، باتت أكثر إغراء من أي وقت مضى وهي تتقمص دورها الجديد

المُغَاير تماماً لتجارة الجسد أو أنها تمارسه الآن بطريقة أخلاقية محض
إعتقاد ما ، ها هي تُمشط الحي جيئةً وذهاباً ، توزع نسوة الحي لمجموعات
صغيرة وتكلفهم بمهام مختلفة ، تتأكد من أموال الجمعية وإنسياب
الصناديق المُبرمة داخل الحي بين النسوة ، ثم تعرج على بيت سوميت
مهْددة :

- يا تخلي تجارة القرق يا والله ببلغ عنك

سوميت بعد أن ضحكتُ بخُبث:

- نحنا دافينو سوا يا عفاف ماتنسي ، شوفي سكة تانية

- المهم اللهم إني قد بلّغتُ

سوميت قبل أن تغلق الباب في وجه عفاف:

كلنا عارفين علاقتك مع شيخ سيف الدين ، السواق الجديد يا اللوري
التائب.

عمر في مواجهة عنيفة مع معشوقته تامبير التي تأتي لحظة إغماءه لعينة
وتهرب إلى حيث لا يدري ، تأتي بكامل هيئتها الأنثوية الطاغية وتعبه حد
الشبق فينسى كل شيء عدا منقوع البلح اللذيذ وحضورها الغير مخطط
له ، حتى عندما تجود له سوميت بوطأه عابرة يتخيل أن التي أسفلهُ ليست
سوى تامبير صاحبة العينان البنيتان والقوام الممشوق والأثداء الصغيرة
المنتصبة ، فيعيثُ فساداً داخلها الغريق.

كان مثيراً للشفقة حيث أنه يحرص على أن يكون مخموراً أطول فترة ممكنة
ليستمتع بوجودها الوهمي معه ، لقد إفتقدتُ تلك اللحظات التي نكون
فيها بشر سويين ، بوعينا واحلامنا وأعمالنا وشغفنا ، أشعر اننا ضللنا
الطريق بالكامل أو ربما الطريق الذي سلكناه لا يؤدي إلى البرّ المنشود ،
إشتقتُ إلى شخوصنا القديمة المعبئة بالحياه والتجديد المستمر ، إشتقت
إلينا الحاليمين ، فما أخبث الهيئة التي نتخذها الآن وما اوحش الإستمرار

في إنزلاقنا السريع نحو قاعٍ يلتهمنا ببطء ونشوه أو بشماتة لكي لا نكون أكثر تحديداً

تُرى متى سننتشل أنفسنا من هذا الخراب أو متى سيلفظنا مُكرهاً؟!

كنتُ اراقب تامبير وهي تقتحم جلستنا المقدسة في محراب سوميت الممسوس وتختلي بعمر أمامي ، تمرّ بخاطري النهم للإعتلاء والتدحرج ، وأعود مرة أخرى لكأس العرق الذي يتلاشى ببطء في فراغ الحي الثمل

جلست سوميت على بمبرٍ مقابل تعليلها إبتسامة شامته تنم عن نيمية طازجة ثم أضافت :

- ما سمعتو الحاصل شنو

ودون أن تحظى بجل إهتمامنا أو حتى ما تبقى من إنتباه اردفت بغنج ودلال أنثى لا تشبهها بتاتاً

- عفاف دخلت الدفاع الشعبي قسم التوجيه المعنوي _ حكمة يعني

هي فكرة خبيثة لتطوير مفهوم _ المشاط _ فالغناء فوق الجثث أكثر فظاعة من الحرب ، لأن المهمة الأساسية لمثل هكذا وظيفة هي الزج بمن يتفاعلون مع تلك الشعارات لعوالم أخرى أبدية قد لا تبدو كما وصفت لهم داخل مراكز التجنيدهي فكرة خبيثة لتطوير مفهوم _ المشاط _ فالغناء فوق الجثث أكثر فظاعة من الحرب ، لأن المهمة الأساسية لمثل هكذا وظيفة هي الزج بمن يتفاعلون مع تلك الشعارات لعوالم أخرى أبدية قد لا تبدو كما وصفت لهم داخل مراكز التجنيد, قد لا تكون كالجنة التي وعدهم بها صاحب الجلالة والسمو, لكن لا مفرّ طالما عاهدوا ارباب الأرض وبايعوهم على الطاعة

الفارس سيد الرجال

الفارس ضراع الحلة عضم الحوت

في حلق العدو الشيطان

المارد الجهّجاه ود البلاد الغرّة

ثم تهز خصرها بدلال وخُبث جليان وتُجهز حنجرتها لزغروته مأجورة
يترجمها المحاربون نداءً سماوياً، وبناءً على ذلك يسحقون كل ما يمشى
على الأرض وتحت الأرض وفوق الأرض من إنسٍ وحن وحيوان وشجر،
يلتهمون الأشياء بصورة تجعلك تعتقد بإصرار أن ثمة ضغينة أو نزعة جينية
تستحوذ عليهم، كتلك القضية التاريخية المجهولة بين الأسد والغزال تماماً

خبئت سوميت ثلاثة قنان كبيرة من عرق النخيل المعتقد لأمسية السبت
التي عادة ما نقضيها داخل منزلها الصغير، بعد أن ساق الونس إليها أخبار
عيسى فوري الذي دُوهم بواسطة قوه مجهولة صادرت جوالات النخيل
المنتصبة من بيته، قوه لا ترتدي زيّ أو عربة معنونة أو حتى لون مؤسسيّ
واضح، عادة ما يحدث امراً مماثل حيث يعلن المجهولين عن مصادرة
النخيل وعن الرغبة في التخلص منها عن طريق الحرق، ثم بعد ذلك يتضح
أن المحرقة ليست سوى بيت سوميت أخرى في حيّ آخر أو مدينة أخرى،
سحب عمر أحد القنان الثلاث ثم إتكا على سرير يتوسط الغرفتين
الطينيتين في الوقت الذي كنت أدس رغبتي في تناول القهوة داخل مطبخ
سوميت او ربما معملها الكيميائي لا أعلم

إرتشف كأسان ثم أضاف:

- فلنُصلي من أجل عيسى

ثم أغمض عينيه ورحل إلى ذلك البراح المجازي حيث يلتقي بتامبير امرأة
لا تأتي على مهلها على ما يبدو، لا تأتي لحظة إستفاقة، فقط تقتحمه إقتحاماً
حزين جميل وتغيّره بعض الدفء وكل الألم تخيفني دائماً فكرة أن ينفق
رجلاً ما كل عمره في غيبوبة يستमित من أجلها!

غفوت قليلاً، فاستيقظنا على صيحات الحيّ، الأمر أقرب لمهرجان وطني
وفي عز خوضنا في تلك الإحتمالات الجاهزة ووجوهنا المُفزعَة حشرت
سوميت نفسها داخل المنزل تعتليها ملامح خبيثة ويتصبب منها العرق

اضافت بين تنهيدات السريعة:

عفاف المشّاطة فازت في إنتخابات إتحاد المرأه



موسيقى الغياب

الأمر ليلاً يبدو أكثر وضوح ، حيث نعتلي ذواتنا بجُراه ، نتعري من وقارنا
الزائد وإحتمالاتنا الجاهزة ، هي لحظة نستشعر فيها حقيقة أننا أشباح
ودميّ لحظة أكثر دقة من أيّ وقتٍ مضى

طائر السنونو لا يُغني

هو فقط يُجربُ حنجرة ليلى ليبدو جميلاً

يُجرب نظرات بهنس التي تطارد بنتيه ، يضحكن اسفل شجرة الدوم
ويصنعن مزهرياتٍ صغيرة لورود لم تأتي بعد من مشتل حي النسيم ،
يتأملهن بحزن ورعب كما لو أنه يخشى فقدهن ويعود مرة أخرى لكومة
السعف القابعة تحته ليحولها رويداً رويداً لحبال أو كما يسميه مجازاً ، معبراً
تمر من خلاله ليلى وشقيقتها الصغيرة نحو أماكن آمنة يجهلها

شمس الظهيرة الحارقة تنفخ وجوه المارة التعب ، تحول الباعة لمحمومين
يعكفون الصبر ويعرقون على مهلهم وهم يعرضون بضائعهم البسيطة على
الكرتون المقوى في سوق _ أم دفسو ، مكبرات الأصوات الصارخة تفتق
الأذن ، زحام العابرين ونقع أرجلهم وأعينهم التي تطارد الأشياء المعروضة
وكأنهم يبحثون عن كل شيء أو يتمنونهُ ، بهنس يجلس ممدداً قبالة حباله
المفتولة ، يراقب حركة السوق ولا ينسى أن يصرخ بين لحظة وأخرى
بصوتة المخنوق المُلح _ حبال ، حبال ، حبال ، يلمح ليلى تلوح له من
بين الباعة متأبطة حافظة الأيس كريم في إشارة منها لتحية عبقة ترسلها
خلسة عندما تمر حيث يجلس اباهاً عادةً مُزودةً بإبتسامة جميلة جافة
ومنكمشة من ثغرها الصغير وشفثاها المُتشقتين

في أزقة الحي الملتوية تلعب كلثوم مع الأطفال ، تقفز من بيت إلى بيت من طريق إلى آخر أو إلى غرفة أحدهم ، توزع بشاشتها وعبثها المريح وتستقطع من همومهم مقدار هذيانها الطفولي راكضةً في مخيلتهم طفلة ينتظرونها لتعبر بخفة ظلام حيواتهم وبشاعتها
تغني وتصفق :

- الليمونة الليلة يا

خلف مزياع الجيران المنتفض وكأنه يرغب في التحول إلى شخصية حرم النور التي يقترن إسمها بهذه الأغنية تحديداً بشكل مدهش ، تغني لتملاً الفراغ الذي تركته ليلي من أجل أشياء لا تخطر في بالها ، بل نيابة عن ليلي أيضاً تُجَهِّز على المقطع كاملاً بعفوية وبراعة ، على أرضية سوق أم دفسو يجلس بهنس مراقباً كومة الحبال الخاضعة لمشتري مجهول ، يقرأ في عيون المارة أشياء عديدة لكن ليس من بينها أنهم يريدون حبلاً اليوم ، وفي أثناء تتبعه المٌضني جاءته ليلي تسبقها ابتسامتها الرائعة وتمددت بقربه بعد أن هياتته للونس مضيعة :

- بابا انا كملت الأيس كريم كلو ، خمن القروش في الكيس ده كم

ثم تلوح بكيس يحوي نقود فيصدر صوتاً أشبه بالكشكشة

يرمي بهنس في لحظات كهذه دعابة ما ليتهرب من حضور الكيس الصاخب ، يؤلمه فكرة أن بضاعته لا يمكن أن تغدو نقود أو ربما سيتطلب الأمر مزيداً من الصبر ، أيقن انه يحتاج نوعاً آخر من البضاعة ، يحتاج طرق أبواب غير السعف المبتل ، بل يحتاج إلى ثلاجة بالفعل لكن كيف ، عاد من رحلة هذيانه ليجد ليلي تتطلع في وجهه محافظة على ابتسامتها الواسعة تلك ، مسح على رأسها ثم أردف :

- امشي البيت خلاص ، كلثوم منتظراكِ وبت محجوب ست الأيسكريم
برضو بكون منتظراكِ الزمن ده

والدتها منشغلة بترتيب بيتها الصغير الذي في الأصل غرفة وراكوبتين من العلف منتصبتين في منتصف المنزل ، تنظفه ببطء متعمد لقضاء أطول وقت ممكن ثم تُنفق ما تبقى منه في غسيل ملابس بنتاها وبهنس وشخصها إذا صمد صابون الغسيل التشادي ، تُعير الزبي المدرسي اهتماماً مضاعفاً ربما لإعتقادها الجازم وحرصها على تعليم بنتاها هو ما دفعها لذلك ، التعليم فقط ما يطمئنها عليهن ويجعلها متفائلة بمستقبلهن

مرت ليلي على بت محجوب اعطتها نصيبها من البشاشة التي توزعها عادةً ، تناولت وجبة الغداء التي تعدها بت محجوب خصيصاً لها ولم تنسى أن تخبئ نصيب كلثوم في جيبها السري داخل فستانها البنفسجي الفضفاض ، بت محجوب تدري ما تفعله ليلي ومع ذلك تتعمد الغياب في غرفة ما لترك متسعاً من الوقت كافي لأن تدس ليلي ما تبقى من طعام ثم تُعطيها مقابل عملها في بيع الأيس كريم وترحل

ربما بت محجوب تُعد الطعام من أجل كلثوم منذ البداية.

في نهاية القرية جبلاً قصير يقفز من على الأرض مُحاكياً لعبة ما ، مشية ما أو إحتشادِ تصورات البنيّات وهن يغازلن العشب على مرأى الشجر والفرغ أدرك الجبل حينها بأنه يستطيع المشي ، يستطيع إفتكاك بعضه من قبضة الأرض ، لم يفاجئه الأمر لأنه في وقتٍ ما تخيل ذلك

وهناك فوق الظهيرة تجلس _ هي _ بعد أن حررت شعرها ، ربما لتُغيظ بمُشاطها رأس الجبل الأملس

تحسسته برفق ، دفعت أصابعها بتلذذ وشماتة مُخللة إياه

وياستمالة سريعة دقت في مرآتها المهشمة _ فصاح الجبل :

- إستحت فتهشمت

وقفت ليلي بجانب الجبل ، حرضتها الثرعة لعناق طويل قررت بعدها أن تجود لها به ، نشوة الاستحمام تعتربها ، قفزت لتُجرب هذه المرة صوت

الطائر ، طائر السنون وهو ممشوقاً على الماء ، شهيق ثم زفير ثم غطس ،
مداعبة الماء شهياً جداً أكثر من أيّ تواصل جسدي ، شهيق ثم زفير ،
زفير ، زفير ثم تلاشي ، كان الماء أقوى فذهبت في غياهب الثرعة ، إمتصها
الماء إمتصاصاً مربعاً حد الغرق

هكذا وببطء كمن يُمرر مِدِيّةٍ مُسننة تملأ الأرض دماً وتكتنز الأمكنة رحلت
تاركة وجودها الطاغ ممدداً هناك

البالون يطفو فوق ماءِ الثرعة

يطفو ليبقى بمتناول " كلثوم " ونظراتها الطفولية الشاحبة

تراقبه مراقبة لصيقة رافضةً فكرة أن تتقاذفه الرياح

تُدمع عيناها ، وبمخيلتها البريئة تُبسّط يدها المرتجفة علّها تُمسك
بشقيقتها ، هو بالون يشبه ليلي في قفزه الضاحك لكنه لا يغرق ، طارده
بعيناها المدمعتين ، بصراخها الشره وهي تلتزم موقعها الذي تحاول أن
تتحرر منه ، ترى ليلي ولا تراها ، تسمع صوتها وهي تُغني :

الليمونة الليلة يا

مانعني ما نزورا

الليمونة الليلة يا

كان مزاحها ثقيل هذه المرة إذا طورت لعبة الغموضة إلى إختباء نهائي
ورحيل مرّ ، وأحالت المنزل ثرعة إبتلعها وأبى أن يلفظها جيفة ، فحتى
الرحيل إلى الأبد يجب أن يكون مؤكداً ، يجب أن نتألم دفعة واحدة عسى
أن نستريح بعدها أو نموت

طائر السنونو وقف أعلى شجرة الدوم العتيقة وأخذ يُغني ، هذه المرة كان
يغني بصوتٍ تنازلت عنه ليلي ، هو وحده كان جاهزاً لأن يرثها ، وحده من
كان يحاكي وجودها الافتراضي بيننا

نظرت إلى البالون وهو يمضي كليلى

إصطدم البالون بشيءٍ أحاله إلى اشلاء مُصدراً دويّ ترجمته "كلثوم" رعباً

صدمة ما إعترتها فصرخت :

- "ليلى" ، أنى لكِ أن تعودين ، سأهدي لكِ فستانى الأزرق الذي
تحبينه ، سأعترف بجريمتي تلك التي عُوقبتى عليها نيابةً عني
"ليلى" ، من سيسرق الحلوى من حقيبتى كنت أقصد وضعها في
زاويةِ الأقلام ، لأنك عادة ما تمرين عليها حيث أدس علبة الألوان
خاصتكِ "ليلى" ، خُذي كل شيءٍ وعودي مرة واحدة إليّ من ذاك
الغرق

وبهنس هناك في زاوية المسجد العتيق جالساً بعد أن صلى ركعتين
بطيئتين ، تتسرب دموعه إلى جيده منزلة عبر المسافة التي بين جسده
وقميصه إلى أماكن شتى ، هو يعلم أن الغرقى لا يعودون ، يؤمن تماماً بأن
ليلى لن تُفلت من قبضة الملكوت وتأتي إليه ، لكن كان عليها أن تودعه
وداعاً رسميّاً أو هكذا تمنى

مرارة الرحيل تستحوذ على حاسة تذوقه ، يستشعر بين الفينة والأخرى
وجودها الأقرب للشبح ، لعنة التربة تتواصل في مخيلته فيرى كلثوم تتبع
خطى ليلى نحو الهلاك ، يمتلكه الرعب فيبكي ، هي الرغبة في الإستسلام
أو هكذا ورث الأمر بصورة ممنهجة ، رفع بصره إلى السماء وأخذ يهذى :

- انا لست سوى بهنسٍ ما من الذين لا يلائمهم الفرح ، لست سوى
أباً لليلى من تلك الليالي اللائي غرقن في تُرع الأرض الواسعة الجائعة
لمزيد من انثيات الأشياء ، هن هكذا منذ الأبد يغرقن في كل شيء ،
في الحب والتُّرع في النواح والنشوة وكأنهن خُلِقن للزوال بصورة
شرهة أكثر من غيرهن

بت محجوب متجولة في سوق ام دفسو ، تزرع ارضفته وتجوب شوارعهِ
وتحتضن بين مكان ومكان آخر حافظة الأيس كريم التي ما زالت تحتفظ
بملاح ليلي ورائحتها الطاغية ، التسكع في ازقته مرهقة جداً ومكلفة ربما
لأنها تستغرق وقت أكثر في تخليص البضاعة لا يتناسب مع الوقت
القياسي لليلي ، حتى الزبائن إفتقدوا بشاشتها وعبثها الطفولي أثناء مرورها
البهيّ وهي ترمي ضحكاتنا الناضجة هنا وهناك بين احضانهم البائسة

بهنس مُتكوم على برش من السعف ، يفتل آخر حبل مبتل بالدمع
وينسجه بتكلف بائن ، كما لو أنه يفتل ذلك الحبل الذي يتأبطه لمشنقةٍ
ما ، يداه ترتعشان أثناء تلك الممارسة الأبدية حيث تغالزه ليلي من بين
رُزمات السعف وتلوح له ، يعلو وجهها الدائري إبتسامة لطيفة دافئة
تتلاشى في الفراغ ولا تصل ، الأمر أشبه بأن تمسك بسراب مُنقشع يرقص
ماء عذباً يدفعك لمطارته وكلما إقتربت تشعر ملياً بتبدده ، بهنس يمارس
الأمر على مرأى من زوجته الشاحب وجهها و بنته كلثوم وهي تنفخ هواء
عزلتها على بالونٍ جديد سيصدر دوي بعد هنيهة إذا ما توسط التُرعة ،
شجرة الدوم المنتصبة المتفرعة تستفد بهنس بشموخها أو هكذا فسّر الأمر
إذ هيأت نفسها لتكون معيناً جاهزاً له ، لموته الذي قرره في ضجة الصمت
التي تملكته وإبتلع فكرته ربما ليفاجئ ليلي في قيامتها

أنهى نسج حبله ببراعة متناهية ، شدّه ليمتحن قوته وليتأكد هلا فعلاً
سيجعل الأمر سلساً على رحلته السماوية المفاجئة ، طوى الحبل على عنق
شجرة الدوم الصلبة ثم على عنقه الطرية وقفز من فوق حلمه الكبير
متدلياً ، يرفس رغبة في التحرر من روحه أو من المشنقة أو من كلاهما ،
يرفس بسرعة وقوه ، كلثوم ووالدتها تحته تحاولان إنقاذه وتستنجدان ،
ليلي تمرّ في تلك اللحظة مُتخللة سكراته وتسحبه إليها عالياً نحو أماكن لم
نمشيها بعد هي ليست أول روح تتبدد في الأفق أمام مرآي أم ليلي ، ليست
أول دمعة تزرفها على العائدين حيث الرب ، فالحرب الطاحنة ومشهد
إحتراق قريتها النائبة في أقصى جبل دِلو ما زالت حبيسة الذاكرة ، لحظة

الفقد هذه أعادت في مخيلتها حروب قديمة ، هيئة اللصوص وهم يتناوبون مع الزناه ، يبحثون في جيوب الجثث عن احلام الموتى ، قضاياهم ، عناقهم الأخير وحتى الأطفال من اصلاب ابائهم المتكئين على الأبدية ، يتذوقون دماء لزجة أثناء مرورهم الخبيث على انقاض المدينة

اللصوص في الحرب

أكثر بطشاً

أكثر غلظة وألم من الحرب في معناه _ الخراب وأقسى من أن يتدلى أحدهم من شجرة ما مشنوقاً ، احتضنت كلثوم بقوه ، هي آخر شيء جميل ، مسحت من على خديها النديين دمعاً مالحاً واصطنعت ابتسامة صفراء كلفتها إعتصار حزنها الكاسح ، هي الآن دون بهنس الذي أضحى شبحاً معلقاً على شجرة الدوم اليابسة ، ودون ليلي الغائبة في غياهب الترععة ، بت محجوب تسحب أنفاسها بصعوبة وألم بالغين ، ثمسك بحنان وشفقة كف ام ليلي ، هي رسالة أكثر من ما هي مؤازرة رسالة تعني أنني بقربك أكثر من أي وقت مضى ، إفتكت تلك اليد المرتجفة قاصدة بيتها المنزوي في الحلة الفوق وهي تجتر مأساتها وحزنها الشفيفين على مُصاب ام ليلي

قالت لزوجها التو بعد أن ناولته شاي المغربية :

- ما شفت الحصل يا التو لبهنس ، عيالو حالتهم تحنن الكافر

التو بعد أن ارتشف من كوبه رشفتين سريعتين :

- يا بت محجوب ربنا يرحمه لكن كونو ينتحر ما حل

- قدر الله وما شاء فعل

- الشقى ود رجال وبدور ليهو رجال زيو ، والحشاش يملى شبكتو

قالها وعاد ليستمتع بكوب الشاي القابع في يميناه ، هو هكذا مفتياً لبقاً
يحشر رأيه بصراحة وتلقائية ، يمرره بحدة كما لو أنه سيف ويسعل بصمت
ناسجاً لفافة من كيس التباكو المكون في دولاب الحديد الصديء كعادته
المسائية الرتيبة وبقربه زوجته تعباً عصير العرديب والقنقلز في أكياس
الآيس كريم ، تعبئه وتحصيه بدقة لتذهب به إلى ثلاجة السوق حيث
دكان ود النعيم .

كلثوم وحدها تلعب أسفل شجرة الدوم ، تصنع مزهرياتها الصغيره لورودها
وورود ليلي ، ورود لم تأتي بعد من مشتل حي النسيم ، تلعب وتغني :

الليمونة الليلة يا

طير يا حمام لفوق ودي السلام لزول

الليمونة الليلة يا

هي رغبة الطفل في العبث واستمراريته في تدوير الأشياء وتغييرها وفق
هواه ، لم تفقد صوت ليلي أثناء دندنتها وهذيانها لم تلحظ فراغ المكان
الذي كان يشغله بهنس لمراقبتهم ، ما لاحظته أن ثمة عصفوراً يجلس على
الشجرة ، يلحن ويضيف ايقاع متقطع لتلك الأغنية التي ارتبطت وجدانياً
بالمكان ، العصفور ليس سوى طائر السنونو يجرب صوت ليلي في الغناء

ويحشو وجودها المجازي في تلك المزهريات الطينية الجميلة نوعاً ما ،
شعرت بدفء وإنجذاب نحوه ، تملكها احساس انها تفهم لغته ذات البعد
الواحد تفهم إنحيازه لمأنستها مبدداً وحدتها القاتلة

أم ليلي تزرع بيوت الحي والأحياء المجاورة باحثة عن عمل يكفيها شر
التسول ، تلدغها أشعة الشمس الحارقة فتمشي بمحاذاة الطريق ، تمشي
فقط دون أن تعي إلى أين وفي نفسها شيء يخبرها بالمضي قدماً نحو ما
تبحث عنه ، تمشي دون خطة أو جهة محددة وفي معترك تساؤلاتها
وتوهانها تذكرت بت محجوب صاحبة الأيسكريم ، تذكرت ان هناك حافظة

يمكن أن تجوب بها سوق ام دفسو أو سوق المواشي ، ولا شعورياً أخذت تمضي نحو منزل بت محجوب في الحلة فوق ، فعندما تدفعك الرغبة يصبح الأمر ممكناً ومتاحاً عليك فقط أن تدع العنان لتتعرف على نفسك فعلياً وبصورة عملية ، عليك أن تتحول إلى سوس يأكل كل شيء أو يحاول ذلك ، رحبت بها ، قدمتها كصديقة لزوجها النو وتسامرا على فناجين القهوة ، بكري ثم تني وحتى السبارس ، عمقا علاقتهما واسترجعا اوقاتها الرائعة البسيطة ، رفعت بت محجوب فنجان ام ليلي المقلوب مُحاولَةً قراءته ثم أضافت :

- كُنت ماشة ليكي المساء لكن بركة الجيتي

هي بعد أن عدّلت جلستها الخجولة :

- أن شاء الله عافية

- عافية ، عايزاك تسمحي لكلتوم تبيع لي الأيس كريم في سوق أم دفسو

أَلقت ببصرها على الأرض ، شهقت بعنف وألم مُردفة :

- انا بمشي السوق ، كلتوم دي تمشي المدرسة بعد ده

اومات برأسها ايماءة رضى ، لمحت فنجان ام ليلي الذي يبينها في محاولة فاشلة لقراءة المستقبل ، هي لا تعرف كيف لكنها تُحاكي تلك الممارسة عسى أن تُفلح ، هي مجرد أكاذيب تحيكها النساء ، كضاربة الرمل والوداعية وقارئة الفنجان ، والرجال الدجالين والأنبياء المزيفين

كلثوم تحملق في طائر السنونو وتبتسم ، تُبسط كفها الصغير ليُحيله العصفور عشاً دافئاً ، تمسح بحنو جناحيه وتقبله بحب ، وحدها أسفل الشجرة تمارس الحب مع الطائر الذي إختزل نفسه في هيئة ليلي بصوتها الرقيق وابتسامتها العارية من أي ملامح معملية مصنوعة

في الصباح ايقظتها والدتها من النوم أو بالأحرى حررتها من كوابيسها التي تدفعها إلى الصراخ ، ايقظتها لترتب جدائلها وتعيد لخصلها لمعانها المبهر ، ام ليلي تتلصص على حركة كلثوم الزائدة وهي تخط ازار القميص المدرسي ، تخط غداً جميل وعدت به نفسها ذات صلاة ، ذهبت كلثوم نحو مدرسة حي الجيل وغابت هناك حيث صراعها الذي يخصها وحدها ، بت محجوب منتصبه في شارع الحي الفوق الرئيسي مترقبة المارة ومنتظرة ام ليلي لتحمل حافظه الأيس كريم إلى سوق ام دفسو ، لم تمضي سوى دقائق حتى لمحتها داخل ثوبها الرمادي المزركش ، تمشي بحياء وتخطو بدقة كأنها تحصى تلك الخطاوي التي مشتها ، رحبا ببعضهما وتبادلا ابتسامات الإلفة وإفتراقا كلاً إلى مسعاه

أحياناً نحتاج إلى صدمة ما تعيد ترتيب الأشياء بداخلنا وتُحيلنا إلى أطفال صغار يتعرفون بصورة أكثر عمق على ماهية الأشياء ويجددون لائحة أولوياتهم وفق إستقرارات جديدة ، الأمر اشبه بأن تمسك بريشة رغبة في الرسم وتكتشف انك تكتب رسالة ، رسالة حميمية لشخصٍ مجهول ليس مُدرجاً في أوراق إنتظارك

طائر السنونو لا يغني

هو فقط يجرب حنجرة ليلي ليبدو جميلاً

كلثوم تبتلع وحدتها حينما تأتي إلى البيت لتقاسم الطائر غنائها تأتي مُندفعة لتقف أسفل شجرة الدوم تماماً حيث تدلى والدها في الأمس القريب وتعانق رفيقها العزيز إلى قلبها صارخةً :

- انا جيت الأولى يا ليلي

لم تكن تخطط لمناداته بهذا الإسم ، هو فقط إرتباط لا واعي به وبذاكرتها المتأرجحة بين شبيهين سكنا قلبها

في زاوية البيت ، وبين الراكوبتين تحديداً تصفق ام ليلي من أجل ابنتها
كلثوم الأولى في صفها وتصنع لها مرجيحة كما وعدتها من كومة الحبال
القابعة أسفل الشجرة



سيمياء اللون

الصوت الخارج من اللوحة ليس سوى صراخ تجاهلته الريشة ، فارتسم في الفراغ ، والصمت إنحياز أحياناً للسكون والتبدد ، لملامح اللوحة وتماهيتها مع الرؤيا المتربكة وربما إعوجاج ذلك الصوت ، تقطعاته وإنسجامه مع ظل النافذة عزز إعتقاد الناظر "المُشاهد" بداخلي ، أن المشهد كان حزيناً وصريحاً أكثر قبل تجليّه على هذا الجدار ، تمنيت لو كنت رساماً ، لكن المرء لا يبلى بمصيبتين .، تمنيت لو كنت لوناً مجازي منحازاً لكل الألوان ، ممسوساً كما الوميض ، لوناً نبيئ ، ينبعث من العشب اليابس ، ينبعث من صوت الهشيم ، من عبث الحرب ومن كف طفلة خرجت فارغة للتو من جيب والدها المثقوب ، ومن الثقب أيضاً . ، بعد حصة الرسم من كل اسبوع ، تأتي "فاطمة" ابنة الجيران مُخضبةً بالألوان ، وكأن أحدهم عمد على "غمسها" داخل كل أواني الرسم ، ولأنها عمياء كانت تصطحب "الحيط"

ترسم في لا وعيها وهي تتعرّف على ملامح "الحيط" ، عيّنان ، قط صغير ، نبتة قمح ، خريز المياه ، وتمضي ، تمضي دون أن تتحسس للمرة الأخيرة تلك الرسومات المتناثرة في ارجاء الحي وباطن الجدار الأملس ، إلى أن تصل بيتها المظلم بيتها الذي تحفظ ما بداخله بطريقة ما ، لأن العتمة هي العتمة حيث يتداخل تباين الظلام مع رائحة الأمكنة لتبدو مألوفة ، حينها تمضغ "فاطمة" تساؤلاتها ، وتستلطف الجلوس قرب الباب مُنصتة إلى أصوات المارة ، نقيع أرجلهم وقهقهاتهم ، صراخهم الحاد وهمسهم الدقيق ، دعائهم وسبابهم ، تستمتع بامتزاج تلك الأصوات الهاربة من اجسادٍ مُتخمة بالحزن والفرح ، تعبئ في جوفها أحاسيس العائدين إلى بيوتهم ثم تعود إلى وحدتها ، في تلك الزاوية ، في تلك الغرفة المتأكلة

بالضبط ، حيث تتلوى على نفسها وعلى ذاك الظلام الدامس ، تقترح هناك لوناً ، شمساً ، طعماً للرؤيا ، تستنتج من حفيف الشجر طرق التمايل والرقص ومن البرد القارص خواص الندى ، هي هكذا دائماً ، تعيش خارج عينيها عسى أن تُفلح في نسج عالمٍ يتجاوز خاصية النظر ، لتذوق عبره طعم المدى الذي يضيف معنى آخر غير معناه الملموس

تذكرت تلك الدمية ، دمية عمها "العجب" الذي قدمها هدية لها حينما زارت جدتها "سعاد" ، تذكرت أيضاً "حسين" ابن عمها وهو يحكي لها عن لوحات المرسم خاصته ، يُمسك بيدها ويقحمه في اللوحة لتستشعر إبداعه أو ربما لمتعة تعرفها هي ، أمسكت الدمية بقوة ، مررت أناملها المرتجفة على ملامح الدمية القطنية ، وببطء إحتضنتها ، أو بصورة دقيقة إحتضنت عمها وابن عمها وجدتها دفعة واحدة عبر تلك الدمية ، ثم هوت إلى فراشها تاركةً للنوم مُتسعاً يتسلل عبره وللدمع أيضاً ، ففي النوم مآرب شتى من بينها لقاءً قد يتدحرج من أعالي الذاكرة ، أو حلماً يكبر ببطء على مهل الذبول ، بات الأمر بمثابة حرب ، إما أن ترى أو ترى ، بغض الطرف عن ماهية الرغبة التي تعتربها ، فيقول الناظر الذي يمشي أو الجزء الحر منها ، ما الذي تُريدين رؤيته تحديداً ، فالعالم حولك ليس سوى صوت ، صوت ضخم يملأ الفراغ بالتفاصيل ، يعبرك كما يعبر الجميع ويهمس في أذنيك كما يفعل بكل سكان البسيطة ، لاشيء يدفع للرؤيا ، تمردت "فاطمة" على عصي الخيزران ، على جدران المنازل ورسوماتها التلقائية ، على أشجار النيم والحراز والفايكس ، تمردت على ذاكرتها المحدودة وأحدثت ثقباً جديداً بمحازاته ، على نهم الأطفال الذين يُقبلون للمساعدة ، وعلى المارة وهم يُشيرون على طريقٍ سلس مهذب ، حتى على صديقتها "خديجة" التي تمشي بجوارها حد الإلتصاق دون أن تُمسك بها ولا تكف عن الحديث حتى لا تفقد فاطمة الطريق ، سألتها ذات مرة وهن يثرثرن:

- لماذا تساعدينني يا "خديجة" ، هل أنت مُشفقةً عليّ

- خديجة يارتباك ، لا ، انا اصطحُبُك فقط ، ثم إننا في نفس الطريق ، نحن إخوه وبنات حيّ واحد فما الجديد في ذلك
- فاطمة بعد تنهيدة ، لا شيء ، فقط أردتُ أن أطمئن

نبذت كل شيء ، كل ما يمكن أن تتمدك به لتنجو ، عازمةً على تكوين حاسة سمع تُغنيها عن الإحتياج لأحد ، لتسمع ديب النمل وتستشعر حيز وجوده ، لتسمع صوت الريح وعبثه بورق الشجر والأتربة ، لتتحسس في لُجة الظلمة دفتر الرسم في أقصى حقيبتها المدرسية وعُلبه الألوان في درج المنضدة ، ونوع المخمل المنزلي في دولا ب الملابس ، هي محاولة حثيثة للتعرف على الأشياء عبر الحواس الأربعة مجتمعة لتوليد الرؤيا من الفائض العام لتلك الحواس ، الفكرة برُمته فكرة مجنونة أو هكذا خيل ل "خديجة" . في المساء ، وككل يوم جمعة وثلاثاء جاءت الجدة "سعاد" مُحمّلةً ببعض العطور وزيوت الشعر وخاتم لُجَيْن هرمي ، أقبلت لتُجدد ترتيب خُصل حفيدتها وتعيرها بعض العطور الجميلة ، والخاتم الذي ما فتئت تطالب به ، ولجت إليها ، تعانقا وتبادلا إبتساماتهن المعهودة ثم حضّرا أواعي الإستحمام ، هن هكذا منذ خمسة عشر عاماً يمارسن طقوس الأمومة والطفولة ، "غمستها" داخل الماء الدافئ والمُعد مسبقاً ، بدأت بسرد بعض القصص التي إرتبطت وجدانياً بهذه الطقوس ، أصدرت فاطمة ضحكة خفيفة ثم أردفت:

- دعي الأمر لي ، سأستحم لوحدي هذه المرة

الجددة ، :

- لقد كبرت يا فاطمة ، هيا دعيني أراقبك

أخذت تُمرر يدها على جسدها الطريّ المُبلل ، تارةً عبر صابون الإستحمام وتارةً أخرى عبر الماء الدافئ ، تستمتع جدتها بالنظر ربما لمقدرة حفيدتها على الإستحمام وتستمتع فاطمة بتلبية رغبتها في إقتناء جسدها وحدها ،

يضحكان ، تستمر الجدة في سرد الحكاوي والأساطير ، تواصل فاطمة إكتشاف جسدها المبلل برقة ، من أعلى رأسها وحتى أرجلها ، تتأني في فرك نهديهما الصغيرين مروراً بمنتهى الأشياء ، تتحسسهُ برفق وتغمره بالماء في حلقة دائرية ليبدو أكثر إرتزاق ، تحاول جاهدةً فرك ظهرها وتأمّر الجدة بأن تواصل القص ولا دخل لها بصراع زراعيها في عملية الوصول إلى منطقة الظهر البعيدة ، تضحك الجدة وتُشجّعها وتسكّب من الأعلى ماءً نقي يتسربل على جسدها العاري ، جففت شعرها ، وتمدّدت أمام الجدة ، التي بدأت في نسج شعرها المبلل كما لو أنها تُحيك حلماً جديداً تدسه في رأس حفيدتها الصغيرة ، في مخيلتها التي تتربص بها ويدخلان في مشادات ، بين الرغبة في إجتياح الضوء والعممة الجاثمة على صدرها ، عممة مقدر لها أن تكون ، بهذه الصراحة والصرامة . ، طريق المدرسة المتعرج كان أكبر إمتحان عليها تجاوزه ، دون صديقتها "خديجة" ودون أن تتحسس الجدران والرسومات وأصوات المارة ، عليها أن تتبع حدسها ، عليها أن لا تُفرض في توازنها الحسيّ ، حشرت نفسها بثقة داخل الشارع المستذئب ومضت ، مضت غير أبهة بشيء وهي تُمسك الفراغ بيديها الملوحيتين ، مُزودةً بفائض الحواس الأربعة ، يحدثها العابرين عن مسارات المشاه وممشى الراجلين ، لا تُبالي بصياحهم ولا بأبواق السيارات التي أفرعتها أكثر مرة ، لم تستطع تحسّس المنعطفات التي يجب أن تخوضها ، ففي الفراغ يبدو الأمر متداخلاً ومتشابه كالظلام الذي يحاصر حلّمها ، أخذت تبكي لأن الرغبة في تجاوز الرؤيا التقليدية للأشياء باتت مُرعبة ، جلست على أسفلت الطريق ، تلطم وجهها وتلعن ما لم تقوى على تجاوزه ، الأبواق تُولول ، سباب السائقين يجرح خاطرها الهش ، الجارات يُثرثرن ويصرخن ، الأطفال يصيحون "فظومة ركبت الزلط" ، جرى "عبد الوهاب" صاحب البقالة نحوها ، تعثر بالمقود أو بدقة أكثر تعثر بالقدر الذي يتأبط المقود ، سقط مراراً وهو يعدو كالبالون ، سحبها نحو صدره بعنفوية ورقة ، مسح على رأسها في الوقت الذي بلّت دموع فظومة جلايته

المعروفة ، فطومة تواصل النحيب محاولة دس هزيمتها بين لحظات الشهيق الطويلة ، هي فقط تعرف حجم خسارتها الفادحة ، إنتزعت جسدها بعنف من صدر "عبد الوهاب" ، حاول إلتقافها ولكن عبثاً أمسك الفراغ ، وإحتضنت صدرأ حديدي عرّفه الحاضرين عربة "جامبو" مصبوغة بألوان شتّى ، كلوحة إبتلعت رسامها أو ربما قرر أن يسكنها ، وحدها إستطاعت أن تخبئ رغبتها الجامحة في الرؤيا عبر فائض حواسها ، وحدها تمطّأت على شارع الأسفلت الطويل لتُجرب ظلاماً أكبر ، ظلام الموت ورائحة الردى الموسمة بالرعب ، لم ترغب "فاطمة" بالموت بقدر رغبتها في التنحي لمن هم أكثر حيطة وحذر ، أكثر احتمالاً في الفوز ، جدتها "سعاد" تلطم بكفيها المرتجفتان ، تلطم وجهها وتلعن تلك الأصوات التي حرّضت حفديتها على الفناء ، بصقت كل ما إختزنته من ألم وحزن وهي تتحسّس وجودها المُفترض على محيا القابعين ، لم تتسامح مع فكرة أن "فاطمة" حشرت نفسها دفعة واحدة في أوج العدم ، وهناك في زاوية البيت وعلى مدخل الغرفة الصغيرة ، تكوّر ابن عمها "حسين" يراقب اللوحات الشاحبة والرسومات التي تُحاكي الجلوس المُهمل ، ربما ستخرج صاحبة الريشة من بين حوافها حينما ينجلي النهار ، الأمر أشبه بأن تُصدّق أو لا تُصدّق إحتمالات باهتة مُملة ، لم تُفسّر "خديجة" كل تلك التساؤلات التي دائماً ما تُقحمها "فاطمة" في تسكّعهن وثرثرتهن ، بل لم تتقبل رحيلها المُناقض لرغبتها في تجاوز عينيها البيضاوين لتنسج خاصية رؤيا تخصها ، هي لحظة تعمّدت أن تستبعد فكرة الهزيمة التي إعترت صديقتها المُحبة وتستنكرها ، أطفأت أنوار غرفتها الصغيرة ليسمح لها الظلام بالبكاء دون أن تُهيء في ذاكرتها مكاناً للحظة الحزن تلك ، الظلام الذي سمح "لفاطمة" بالركض الأعمى يمكنه أن يتحمل فائض الدموع ، يمكنه إبتلاع أسفي كما إبتلع توسلاتها ، يمكنه إزاحة صوتي المُتحشرج كما أزاح تلك الأصوات الضخمة من ذاكرتها ، لأن كل شيء في الظلام ممكناً كاس 2018

الفهرس

الصفحة	الموضوع	م
5	الاهداء	1
6	للحزن ممشى	2
15	ما يحدث في الزقاق	3
20	ذاكرة الشتاء	4
25	ظلال تطارد اجسادها	5
30	أنثى مزيفة	6
36	مشاهد محذوفة	7
44	صدى الفاجعة	8
49	أنا لست بقرة	9
57	نشوة الهلاك	10
62	يوم في كوبا	11
67	ازرار البيانو	12
73	توهان	13
79	عزاء على ورق	14
83	محطة تيبورتينا	15
91	اتكاءة على الجرح	16
99	امراة من بحيرة تانجانيقا	17
105	لصوص أفانوفا	18
112	بكاء العصافير	19
117	موسم الجوافة	20
123	ليس بيننا ما يستدعي البكاء	21
127	مساحيق لا تخص النساء	22
133	سوسن الاخرى	23
140	فلسفة المشاط	24
148	موسيقى الغياب	25
159	سيمياء اللون	26